سلسلة: من القرآن إلى العمران (٥)

هذه رسالات القرآن

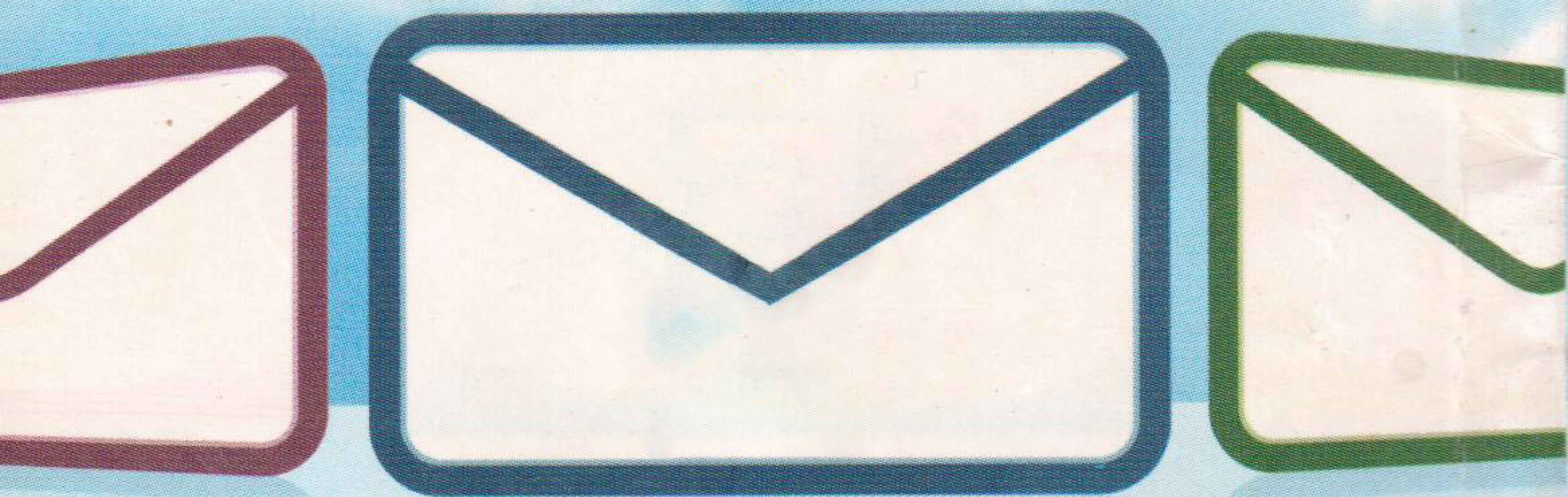
فمن يتلقاها ؟!

تأليف

فريد الأنصاري

إعداد وتقديم

عبد الناصر المقري



دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

* * *

تقديم

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، وصلى اللَّه وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

وبعد؛ فهذه رسالاتٌ قرآنية، كانَ قد بعث بها الشيخ فريد الأنصاري - رحمه اللَّه - قُبيل رحيله بقليل إلى دار البقاء، إلى أتباعه ومحبيه عبر موقعه الفطرية www.alfetria.com؛ إذ كان يتواصلُ من خلالها معهم، حاثًّا إياهم على التمسك بحبل القرآن الممدود من السماء؛ الذي طرفُه بيد اللَّه وطرفه الآخرُ بيد منْ أخذَ به من عباد اللَّه الصالحين.

إنها بحق رسالاتٌ بليغة، انبعثتْ من قلب رجل عالم ربَّانيٍّ حكيم مخلص، صدقَ اللَّه فصدقه. عالم قرآنيّ وقفَ طويلًا على باب القرآن، ومن خلاله « بدأ يفتحُ الأبوابَ ويستطلعُ

الآفاق... فصارت قضاياه قرآنية، ومجالسُه قرآنية، ومصطلحاته قرآنية، وبرنامجه قرآنيًا، وشعره قرآنيًّا، وتصوُّفه قرآنيًّا »، كما رثاه بذلك أخوه العالم المجاهد « أحمد الريسوني » - حفظه اللَّه -.

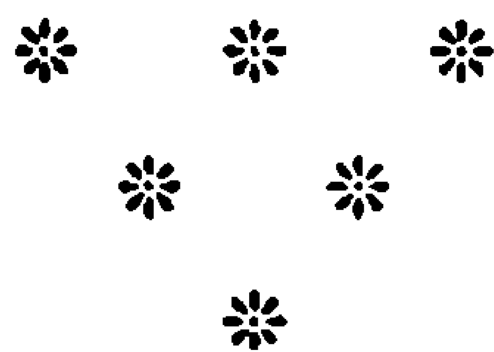
لقد بعثَ إليَّ شيخي فريد الأنصاري قبلَ سنتين رسالة من مستشفى السماء بتركيا؛ يتعهدُني بها كما يتعهَّد بغيرها أصحابَه وإخوانه، وهذا جزءٌ من متنها:

« ... واعلمْ أخي الحبيب أن كلَّ الناس مُبتلى وإنما يُوفى الصابرون يوم القيامة أجرهم بغير حساب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فمن لم يصبر على ما ابتلاه اللَّه به؛ فإنه لا يكون أهلًا عند اللَّه لحمل أمانة الدعوة إلى اللَّه! أقول هذا الكلام لنفسي أولًا، ولك ثانيًا لأنني أراك - إن شاء اللَّه - مهيأً لهذا الشأن العظيم: التعريفُ باللَّه والدعوة إلى وجهه الكريم! فأكرمْ بها من وظيفة وأنعم!

فإذا ابتلاك اللَّه في نقطة ضعفك فذلكَ حتى تخلص للَّه، وللَّه وحده، فلا يكون منك شيءٌ لغيره! وتذكرْ قصة إبراهيم مع ابنه. فتلقَّ الرسالة جيدًا واقرأ إشارتها! وتفرَّغ لربك!...».

نم يا شيخنا قريرَ العين، هادئَ النفس، مطمئنَّ البال؛ فنحن أتباعُكَ قدْ أخذنا عهدًا على أنفسنا أن نسيرَ على هدْيك، وأن نقتدي بسيرَتك، غيرَ مبدِّلين ولا مُدبرين. اللَّه غايتنا، والنبي محمد ﷺ قدوتنا، شعارُنا قول اللَّه تعالى: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود: ٨٨].

تلميذ الشيخ الوفي



Abdennasser@hotmail. fr

المحمدية، صباح الأحد، ٢٩ رجب ١٤٣١هـ

الموافق ١١ يوليو ٢٠١٠م

❊ ❊ ❊
❊ ❊
❊

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

* قال اللَّه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

* عن أبي شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ فقال: « **أبشروا أبشروا؛ أليسَ تشهدون أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه؟** » قالوا: نعم، قال: « **فإن هذا القرآن سببٌ، طرفه بيد اللَّه وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدًا** »(١).

* * *

(١) رواه الطبراني في الكبير (ص ٣٦٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (ص ٢٣٥)، وغيرهما، وصحَّحه الألباني في سلسلة الصحيحة (ص ٧١٣).

الرسالة الأولى

في تحديد الوجهة

عندما يُضْرَبُ الحِصَارُ على القرآن وأهلِه، وتُغْلَقُ مَدَارِسُهُ ومَحَاضِرُهُ، وتُصَادَرُ ألواحُه وحَنَاجِرُهُ؛ فإن اللَّه ﷻ يبعثُ له من يتلقَّى رسالاته من جديد؛ على سبيل التجديد لهذا الدين في النفوس، وتحدِّي الكيْد الشيطاني للدين وأهله! ثم ينشر نوره في الآفاق! ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

إنَّ المسلمينَ في كثير من الأقطار يُعانون اليومَ أزمةَ غياب التداول الاجتماعي للقرآن الكريم! ومعنى « التداول » ههنا: الانخراط العملي في تصريف آيات الكتاب في السلوك البشري العام، تلاوةً وتزكيةً وتعلُّمًا، وتعريض تربة النفس لأمطار القرآن، وفتح حدائقها الْمُشْعِثَةِ لِمَقَارِضِهِ وَمَقَاصِّهِ!

حتى يستقيم المجتمعُ كله على موازين القرآن!

إن ثمة أزمة منهاجية في التعامل مع القرآن وبياناته النبوية في الصفِّ الإسلامي المعاصر.. إن مشكلتنا أننا نشتغل حول القرآن وليس بالقرآن وفي القرآن! وبينهما فرق كبيرٌ كما بيناه في كتاب « الفطرية ». إن الذي يشتغلُ بالعمل حول النص الشرعي، معناه أنه يتخذه شعارًا فقط، ربما من حيث لا يدري! لأنه في الواقع يشتغل بمجموعة من الأفكار المجردة، والآراء الشخصانية، أو الجماعية؛ ولذلك فإنك تجد عملية تداول القرآن ومكابدته في مثل هذا الصف ضعيفة جِدًّا إن لم تكن منعدمة! لأن التحقق برسالات القرآن، وبحقائق الوحي، ليس مقصودًا لذاته في حركة ذلك العمل. وفي ذلك ما فيه من مَثَالِمَ ومَخَارِمَ!

أما الاشتغال بالقرآن وفي القرآن، فهو: عملٌ يتخذ كتابَ اللَّه أساسَ مشروعه، وصُلْبَ عَمَلِهِ

ومنهاجِه، تلاوةً وتزكيةً وتَعَلُّمًا وتعليمًا! إنه دخولٌ في مسلك القرآن، تَلَقِّيًا لآياته، وخضوعًا لحركته التربوية في النفس، ومكابدةً لحقائقه الإيمانية، واستيعابًا لأحكامه وحِكَمِهِ، في طريق حمل النفس على التحقق بمنازلها والتخلق بأخلاقها! إنَّ السير العملي في ميدان الدعوة والتربية على هذا المنهاج هو عين الالتزام بمنهاج النبوة في إصلاح النفس والمجتمع. إنه تمثُّلٌ حقيقي بحياة الصحابة الكرام، واتباعٌ للطريقة العلمية الحقة في تجديد الدين، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

إن اتخاذ القرآن أساسَ العمل الدعوي، ليس معناه إلغاء وسائل العمل الإسلامي الاجتهادية، سواء كانت اجتماعية، أو سياسية، أو اقتصادية، أو إعلامية، أو ثقافية...إلخ. وإنما هذا المنهاج يحكم عليها جميعًا بالانضواء تحت هيمنة القرآن والخضوع لتوجيهه وأولوياته! وكذلك بَنَى

محمد ﷺ مجتمعَ الإسلام الأول، تحت عين الوحي وتوجيهه. ودونك سيرته العظمى فانظر!

إنَّ حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب مُهم جدًّا، لكنه لا يمثل بمفرده حقيقة ما نحن فيه! رغم أن تعميم الحفظ والاستظهار لكتاب اللَّه، أو لبعضه، من أهم خطوات السير فيه! إن الحفظ المطلوب في هذا المنهاج إنما هو الحفظ الذي مارسه أصحاب رسول اللَّه ﷺ؛ حيث كانوا يتلقون خمس آيات أو عشرًا، فيدخلون في مكابدة حقائقها الإيمانية ما شاء اللَّه، فلا ينتقلون إلى غيرها إلا بعد نجاحهم في ابتلاءاتها! ومن ثم يصيرُ حفظ القرآن بهذا المسلك مشروعَ حياة! وليس مجرد هدف لِسَنَةٍ أو سنتين، أو لبضع سنوات!

إن الذي لا يكابدُ منزلةَ الإخلاص، ولا يجاهد نفسه على حصنها المنيع، ولا يتخلق بمقام توحيد اللَّه في كل شيء رَغَبًا ورَهَبًا؛ لا يمكن أن يُعْتَبَـرَ

حافظًا لسورة الإخلاص! وإن الذي لا يذوق طعمَ الأمان عند الدخول في حِمَى «المعوذتين»، لا يكون قد اكتسب سورتي الفلق والناس! ثم إن الذي لا تلتهب مواجيدُه بأشواق التهجد لا يكون من أهل سورة المزمل! كما أن الذي لا تحترق نفسه بجمر الدعوة والنذارة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس من المتحققين بسورة المدثر! ثم إن المستظهر لسورة البقرة، إذا لَمْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ للَّه في كل شيء، ولم يسلك بها إلى ربه، متحققًا بأركان الإسلام وأصول الإيمان، متخلقًا بمقام الجهاد في سبيل اللَّه، صابرًا في البأساء والضراء وحين البأس، متنزِّهًا عن المحرمات في المطعومات والمشروبات.. إلخ، واضعًا عنقَه تحت رِبْقِ أحكام الشريعة، في دينه ونفسه ومالِه، متحققًا بِخُلُقِ السَّمع والطاعة للَّه على كل حال، من غير تردد ولا استدراك؛ لا يكون حافظًا لسورة البقرة! وإنما الحافظ للشيء هو الحافظ لأمانته،

المتحقق بحكمته، العامل بمقتضاه، المكابِدُ لما تلقَّى عنه من حقوق اللَّه!

لقد أجمع العلماء والدُّعاة على أن هذا الدِّين - كتابًا وسنةً - مِنْهَاجُ حياة.. وإنه لن يكون كذلك في واقع الناس، أفرادًا وجماعات ومؤسسات؛ إلا باتخاذه مَشْرُوعَ حَيَاةٍ، تُفْنَى في سبيله الأعمار! وهذه قضية منهجية أساسٌ لتلقي موازينه الربانية، والتخلق بحقائقه الإيمانية؛ حتى يصبح هو الفضاء المهيمن على حياة المسلم كلِّها دِينًا ودُنْيا.

إنَّ هذا الهدف العظيم لا يمكن أن يتحقق للإنسان، إلا بعقد العزم على الدخول في مجاهَدات ومكابَدات مستمرة؛ للتحقق بمنازل القرآن ومقاصده التعبدية، من الاعتقاد إلى التشريع، إلى مكارم الأخلاق وأشواق السلوك.. سيرًا بمسلك التلقِّي لحقائق القرآن الإيمانية، والمكابدةِ الجَاهِدَةِ لتكاليفها الشرعية، والسير إلى اللَّه من خلال معراجها العالي الرفيع! ثم

تتبع آيات القرآن، من أوله إلى آخره، آيةً آيةً؛ حتى يختم كتاب اللَّه على ذلك المنهاج!

وإننا لَنَعْلَمُ أنَّ الكمال في هذه الغاية هو مما تفنى دونه الأعمار! ولكن ذلك لا يلغي المقاربة والتسديد! وإن أحقَّ ما تُوهب له الأعمار كتاب اللَّه! وفي مَثَلٍ بليغ حق بليغ: أن نملة انطلقت في طريقها، عاقدةً عزيمتَها على حجِّ بيت اللَّه من أقصى الأرض! فقيل لها: «كيف تدركين الحج وإنما أنت نملة؟ إنَّكِ ستموتين قَطْعًا قبل الوصول!» قالت: «إذن أموتُ على تلك الطريق!»..

وإن القرآن لهو بحق مشروعُ العمر، وبرنامجُ العبد في سيره إلى اللَّه حتى يلقى اللَّه! وما كان تنجيم القرآن، وتصريف آياته على مدى ثلاث وعشرين سنةً، إلا خدمةً لهذا المقصد الرباني الحكيم! ولقد استغرقَ القرآنُ عُمُرَ النبي ﷺ، وأعمارَ صحابته الكرام جميعًا، فكان منهم من

قضى نحبه قبل تمام نزوله، ومنهم من لم يزل ينتظر، حتى جاهد به على تمامه في الآفاق بَقِيَّةَ عمره، إلى أن توفاه اللَّه! لقد عاشوا بالقرآن وللقرآن، وما بدَّلوا تبديلًا! فكانوا هم الأحق بلقب: « جيل القرآن »، أو « أمة القرآن! »..

لقد كان الواحدُ منهم إذا تلقى الآية، أو الآيتين، أو الثلاث.. يبيتُ الليالي يكابدها، قائمًا بين يدي ربه ﷻ متبتلًا! يُلْهِبُ نَفْسَهُ الأمَّارةَ بسياطها، ويبكي ضعفه تجاه حقوقها، وبُعْدَ المسافة بينه وبين مقامها! فلا يزال كذلك مستمرًّا في صِدْقِهِ الصَّافِي ونشيجه الدامي؛ حتى يفتح اللَّه له من بركاتها، ما يرفعه عنده ويزكيه! فإذا كان النَّهَارُ انطلقَ مجاهدًا بها نَفْسَهُ، في أمورِ مَعَاشِهِ ومَعَادِهِ، وداعيًا بها إلى اللَّه مُعَلِّمًا ومُرَبِّيًا، أو مقاتلًا عليها عدوًّا، شاهدًا عليه أو مستشهدًا!

ولم يكن ينزل على الرسول ﷺ من القرآن آيٌ جديد؛ حتى يكون الآيُ السابق قد ارتفعت له في

نفوس أصحابه أسوارٌ عالية وحصونٌ، على قَصْدِ بناء عُمْرَانِ الروح العظيم، الذي بِلَبِنَاتِهِ الفردية ارتفع صَرْحُ الأمة وتألَّف! ولم يزل التابعون وأتباعهم على هذا المنهاج القرآني، في التربية والدعوة والجهاد؛ حتى فتح اللَّه لهم الأرض، ومَكَّنَ لهم فيها قرونًا!

إن الدخول الجماعي المؤلَّف من المؤمنين الربانيين، في هذا المشروع القرآني العُمْرِيِّ، هو أساسُ تجديد الدين، واستنبات جيل الفتح المبين! وإن أغلبَ فصائل الحركة الإسلامية في شُغل شاغل عن هذا المنهاج! ولقد سجَّلنا في غير ما ورقة وكتابٍ، تشخيصَنا لأزمة العمل الإسلامي المعاصر، وبيانًا لانحرافه عن الميزان الشرعي لمسلك الوحي، برنامجًا ومنهاجًا! ومخالفته لمراتب الأولويات الدعوية، كما هي مقررة في الكتاب والسنة!

إننا في حاجة إلى الدخول في ابتلاءات الآيات

القرآنية والكلمات الرحمانية؛ تلقيًا لحقائقها الإيمانية، وخضوعًا لعملياتها الجراحية، ومكابدة لهداها المنهاجي؛ حتى يُشَاهِدَ كُلٌّ منا عبوديتَه للَّه خالصة نقية! ويَشْهَدَ عَبْدِيَّتَهُ له تعالى، على أتم ما يكون الوقوف على باب الخدمة والطاعة!

إن الأمة اليوم في حاجة ماسة إلى من يُبَلِّغُهَا هذه الرسالات، على سبيل التجديد لدينها، والخروج بها من أزمتها، وتوثيق صلتها بكتاب ربها؛ عسى أن تعود إلى احتلال موقعها، من شهادتها على الناس كل الناس! على منهاج النبوة الحق، ووظائفها الكبرى: تلاوةً للآيات بمنهج التلقي، وتزكيةً للنفوس بمنهج التدبر، وتَعَلُّمًا وتعليمًا للكتاب والحكمة بمنهج التدارس!

وإن يقيننا راسخٌ في أنَّ الانخراط العملي الصادق المخلص في هذا المنهاج؛ يجعل الأمة ترقى بمدارج العلم باللَّه، والتعرف إلى مقامه العظيم؛ ما يجعلها تستأنف حياتها الإسلامية،

على وزان جيل القرآن الأول: الصحابة الكرام! وإن ذلك لهو السبيل الأساس لتحرير الأمة من الأهواء والأعداء!

وإنَّ يقيننا راسخٌ في أنَّ أول من سيخضع لعمليات هذا المنهاج القرآني، وجراحته العميقة هو حامل رسالاته أولًا: فنورُ القرآن لا يمتدُّ شعاعه إلى الآخرين؛ إلا باشتعال قلب حامل كلماته، وتوهجه بحقائقه الإيمانية الملتهبة!

فيا شباب الأمة وأشبالها! هذا كتابُ اللَّه ينادي!.. وهذه الأمة تستغيث!.. فمن ذا يبادرُ لحمل الرسالة؟ منْ ذا يكونُ في طليعة السفراء الربانيين، الحاملينَ لرسالات هذا الدين، إلى جموع التائهين والمحتارين هنا وهناك؟.. من يفتحُ صدره لنور القرآن، فيقدح به أشواقَ العلم باللَّه والمعرفة به؟ عساه ينالُ شرفَ الخدمة في صفوف الإغاثة القرآنية، والإنقاذ لملايين الغرقى في مستنقعات الشهوات والشبهات؟ من يمدُّ إلى رسول اللَّه ﷺ يدًا غير

مرتعشة؛ فيبايُعه على أخذ الكتاب بقوة؟ ويقبضُ على جمر هذا الإرث الدعوي العظيم: رسالات القرآن؟ من يقول: « أنا لها يا رسول اللَّه! » فيقومَ بحقها ويَفِي بعهدها؟ ثم ينخرط في مسلك بلاغات الوحي، سيرًا على أَثَرِ الأنبياء والصديقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. فهل من عَبْدٍ - حَقَّ عَبْدٍ للَّه - يجعل حياتَه وقفًا على دين اللَّه، يتلقَّى كلمات اللَّه، ويُبَلِّغُ رسالاتِه! عسى أن يتحقق بولاية اللَّه؛ فيفتح اللَّه له، وعلى يديه! ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣].

ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه اللَّه! والسلام عليكم ورحمة اللَّه.

الأحد، ١٩ نيسان / أبريل ٢٠٠٩م

محبكم: فَرِيدُ ٱلأَنْصَارِي

* * *



الرسالة الثانية

مجالس القرآن منهاجُ الغرباء..!

أيـها الشبـاب الْمُتَلَقُّونَ لرسالـة القـرآن! هذه وظيفتكم أختصرها لكم في كلمات: إن الانتسابَ لرسالـة القرآن تَلَقِّيـًا وبلاغًا، معناه: الدخول في ابتلاءات القرآن، من منزلة التحمُّل إلى منزلة الأداء! إنها تَلَقٍّ صادقٌ لكلمات اللَّه، وتعليمُ القلبِ طريقةَ الاشتعال بلهيبها، والصبر على حَرِّ جمرها؛ حتى يصير مشكاةً بلوريةً تفيض بنور اللَّه..! ثم تعليمُ ذلك للآخرين، بتذويقهم شيئًا فشيئًا لذةَ المعاناة لنور الوحي، ومتعة الحياة بمكابدة القرآن..!

أيها الأحبةُ الْمَشُوقُونَ بحب اللَّه!.. إن النورَ طاقةٌ لاهبةٌ، شديدةُ الصعق كالبرق! نعم؛ لكنَّ القلوبَ الْمَشُوقَةَ بوميضه الوهاج حَقًّا، تشتعل به

فَتَائِلُهَا اشتعالًا، وتلتهبُ به مصابيحُها التهابًا، ثم لا تحترق!

أيها الأحبة المكابدون! إن الكلام المجرَّد لا يكفي لبلاغ رسالات القرآن، بل أَمِدُّوا قلوبَ الآخرين بتيارٍ من شرايينكم المشتعلة! تستضئْ أرواحُهم كما استضاءت أرواحكم! فتغمر الأنوارُ البلادَ والعباد..!

أيها الأحبة المكابدون! إن اللغة عاجزة عن وصف النور..! ولكنَّ الوسيلة الوحيدة لوصفه، والتعريف به، إنما هي قَدْحُ زُرِّ كهربائه، وإشعالُ فتيل مصباحه! وإنما قلوبكم هي مصابيحه، وشرايينكم هي مجرى تياره! فأشعلوا نَارَهُ بقلوبكم، واقْدَحُوا فتيله بنفوسكم! والتهبوا به التهابًا حتى تكتووا بناره، وتجدوا حَرَّ تياره! فإذا صافحتم الناسَ بحقائق القرآن بعدها؛ وجدوا حَرَّ النور في أيديكم، وتلقوا لهيبه من أنفاسكم، ووقعت عليهم كلمات اللَّه من ألسنتكم

وقوعَ النيازك المشتعلة! وذاقوا حقيقةَ مكابدة القرآن كما ذقتم..! فآنئذ - وآنئذ فقط - يدرك الناسُ معنى رسالتكم!

أيها الأحبة المكابدون! إن حُمَّالَ هذه الحقائق الإيمانية في الأمة اليومَ هم القليل.. وإن الحامل لجمرة واحدة من جمر آية واحدة، يكتوي بلهيبها، ويستهدي بنورها؛ لأنفع لنفسه وللناس - بإذن اللَّه - من مئات الحفاظ للقرآن كاملًا، الذين استظهروه من غير شعور منهم بحرارته، ولا معاناة للهيبه، ولا مشاهدة لجماله وجلاله!

فلا يحقرن نفسَه صاحبُ الآية والآيتين والثلاث... إذا كان حقًّا ممنْ قبض على جمرهنَّ بيد غير مرتشعة! وارتقى بقِراءتهن إلى منازل الثريا، نجمًا ينير شبرًا من الأرض في ظلمات هذا العصر العصيب!

أيها الأحبة المكابدون..! يا أيها السالكون إلى اللَّه في زمن الغربة! إن قلة السائرين على الطريق

لا ينبغي أن تثني عزم الصادقين، ولا أن تثبط المؤمن عن الانخراط الإيماني في حمل رسالات القرآن وبلاغها.. بل ربما كانت القلة أحيانًا دليلًا على صواب المنهج! قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٤]، وقال ﷻ في حق نوح ؈: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]، وقال - سبحانه - في حق موسى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس: ٨٣]، وقد كان الأنبياءُ - من قَبْلُ - ليس يتبع الواحدَ منهم إلا الرجل والرجلان والثلاثة، أو النفر القليل! فعن ابن عباس ﵁ أن رسول اللّه ﷺ قال: « **عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ!** »[1]، وفي حديث ابن مسعود ﵁ قال: « **عُرِضَتْ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأُمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلاثَةُ، وَالنَّبِيُّ**

(١) رواه مسلم.

وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ! »[١]، وكذلك كان بدء دعوة محمد ﷺ، ثم صار بَعْدُ أكثرَ الأنبياء أتباعًا.

ولنا اليقينُ أن القِلَّةَ إذا تحققت بولاية اللَّهِ صَنَعَ اللَّهُ بها الأعاجيب! وإن اللَّه - تعالى - إذا نظر بعين الرضا إلى عبد من عباده، أو إلى ثلة قليلة منهم - ولو كانوا معدودين على رؤوس الأصابع - جعل منهم مفاتيحَ للخير، شهداءَ على الناس! وقد نُقِلَ عن الفضيل بن عياض حكمةٌ من أبلغ الحكم فيما نحن فيه! قال رحمه اللَّه: « اِلْزَمْ طُرُقَ الْهُدَى وَلا يَضُرُّكَ قِلَّةُ السَّالِكِينَ! وإيَّاكَ وَطُرُقَ الضَّلالَةِ، وَلا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ! »[٢]، وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه ﷻ: « وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ

---

(١) رواه أحمد، والحاكم وصححه، وابن حبان، والطبراني في الكبير. وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند، والألباني في الإسراء والمعراج.

(٢) الأذكار للنووي: (ص ١٦٠).

فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ! وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ! وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا! وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ! إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ! وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ! وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ!»[1].

والشاهدُ عندنا في هذا الحديث: هو نظر الرحمن بعين الرضا إلى تلك البقية القليلة - بل النادرة - من مُوحدي أهل الكتاب، واستثناؤهم من مقت اللَّه وغضبه! ومعلوم أن بضعة رجال من النصارى الموحدين، ممن بقي على دين عيسى عليه السلام من غير تحريف ولا تبديل؛ قد فرُّوا بدينهم - خوفًا من اضطهاد الكنيسة البيزنطية، القائمة على عقيدة التثليث، وعبادة الصليب - وتفرغوا لعبادة اللَّه بعيدًا في أطراف الجزيرة العربية.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم، عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

لكَ أن تنظر قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه، وهي بِطُولِها في مسند أحمد، وفيها قوله رضي الله عنه لمعلمه الراهب عندما حضرته الوفاة، وما بقي على الأرض أحد سواه، ممن هو على دين عيسى الحق، فقال له سلمان: « إِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ! وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ! وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّكَ زَمَانُ نَبِيٍّ، هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ، يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ.. »[1]. فالتفتَ إليهم الرحمنُ بعنايته ورحمته، وذكرهم بخير في محكم كتابه، قرآنًا يُتْلَى إلى يوم القيامة! وفي ذلك ما فيه من التشريف والتكريم! قال جل جلاله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا

(١) رواه أحمد وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، وعلى ذلك الوزان جرى ذكر أصحاب الكهف قبلهم، وإنما هم سبعة شبان، في سواد عظيم من الكفار!

فهل من شباب يستجيبون لنداء اللَّه؟ ويسلكون مسلك رسول اللَّه ﷺ؟ فيدخلوا في ابتلاءات القرآن المجيد؛ تخلقًا بأخلاقه، وتحققًا بمنهاجه، وتلقيًا لرسالاته، ثم بلاغها إلى سواد الأمة عبر مجالس القرآن ومدارساته، تدبرًا وتفكرًا!

من يبادر إلى إنقاذ نفسه، مع من وفَّقه اللَّه إلى إصلاحهم من المسلمين؟ فيعود بهم من متاهات الشرود إلى هُدَى القرآن القويم، ويتحلل من شكوى رسول اللَّه ﷺ إلى ربه: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

إنَّ تأسيس « مجالس القرآن »، والسلوكَ إلى اللَّه عبر مَدَارِجِهَا الربانية، واتخاذها مدارسَ

لِتَلَقِّي حقائق الإيمان، وأخلاق القرآن، والترقي بمعارج العلم باللَّه والمعرفة به؛ لهوَ المفتاح الرئيسُ للولوج إلى مدرسة رسول اللَّه ﷺ، والسير على خطاه في تجديد الدين، ومنهاج الدعوة إلى رب العالمين!

ولعلك تَتَقَالُّ هذا العمل إلى جانب ما ترى في الساحة الإسلامية من كثرة المناهج والبرامج والخطط، والهياكل والأشكال والألقاب، مع غفلة شبه تامة عن موارد القرآن! فتتساءل: أيمكنُ أن يكون كل هذا العجيج والضجيج على غير صواب في المنهج؟ ولكننا نقول لك كلمة واحدة: إن القرآن وبياناته النبوية في هذا الدين هي كل شيء! نعم هي كل شيء! وإننا نعيش اليوم أزمة خفية في تحديد مفهوم « الدين »! تترتب عنها أزمة أخرى في تحديد مسلكه ومنهاج تجديده! ومن قَبْلُ تَقَالَّ رجالٌ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ عبادتَه لربه، فرغبوا في الزيادة على مقادير سنته؛

فغضب من ذلك، وقال: « مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي! »(١). والعبرة بعموم اللفظ في كل من خالف النبيَّ ﷺ، وسار على غير منهاجه، في الدين والدعوة جميعًا!

إن القرآن المجيدَ مع بياناته النبوية هو كل شيء! وهو - في مسلك الدعوة إلى اللَّه - البرنامج والمنهاج، بما للكلمتين من معنى! فَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ ﵁ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: « أَبْشِرُوا! أَبْشِرُوا!.. أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنَّ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ » قَالُوا: بَلَى! قَالَ: « إِنَّ

---

(١) متفق عليه، ونصُّه: عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا! فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ! قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا! وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ! وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا! فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ! لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي! ».

هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ [أي: حَبْلٌ] طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ! فَتَمَسَّكُوا بِهِ! فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا! »(١)، والأحاديث الصحيحة في هذا المعنى كثيرة وفيرة!

وماذا يكون معنى قوله ﷺ: « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ! »(٢)، إذا لم يكنْ تعلُّمَ آياته، وأحكامه، وحِكَمِهِ، وتزكية النفس به، والدعوة إليه وبه؟ على ما هو مقررٌ في غير ما موطن من كتاب اللَّه، في بيان وظائف النبوة الثلاث: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شُعَبِهِ، وعبد بن حميد في المنتخب. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب.

(٢) رواه البخاري.

إن مجلسًا ينعقد لهذا الهدف العظيم - بصدق وإخلاص - لهو حلقةٌ من حلقات الصِّديقين! ومشكاةُ نورٍ مستمدةٌ من مصباح سيد المرسلين! مُتَّحِدٌ مع قافلة الربانيين، من أوائل المؤمنين، من عهد نوح عليه السلام إلى خُلَّصِ الحواريين، إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ثم من تبعهم من الدعاة المخلصين، رضوان اللّه عليهم أجمعين! سلسلة واحدة بعضها من بعض!

فيا شبابَ الإسلام! هذا نداء اللّه فمن يجيبه؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وأي حياة أعظم للنفس وللأمة من حياة القرآن؟ وكيف لا؟ وقد جعل اللّه « الرُّوحَ » اسمًا من أسماء القرآن! قال جل جلاله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ

صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال - سبحانه -: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، وقال ﷻ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]. وجمهورُ المفسرين على أن المقصودَ بلفظ « الروح » في هذه الآيات إنما هو الوحي والقرآن! وكفى بذلك دلالةً على سره الإحيائي العجيب!

إن نداء الدعوة بالقرآن هو نداءٌ عام لكل مسلم ومسلمة؛ بمعنى أنه لا يلزم أن يكون الداعية به، أو المنخرط في مدرسته، والعاقد لمجالسه، والمكابد لتكاليفه، من أهل العلم المتخصصين به! رغم أن حضور العلماء في الإشراف على مسيرته الدعوية ضرورة شرعية! بل يجوزُ أن يكون الداعية المنخرط في مدرسة القرآن، مختصًّا بعلم آخر من العلوم الإنسانية

أو الطبيعية، كالهندسة، والطب، والفلك، والرياضيات، أو علوم الأرض والحياة وغيرها.. وربما كان تقنيًا في هذا الفن أو ذاك، أو كان تاجرًا، أو فلاحًا، أو صاحب صناعة، أو ربما كان ما كان! فيكفي أن يحوز على رصيد من العلم بالعربية، يكفيه لفهم خطاب القرآن على الإجمال. وله - بعد ذلك - في كتب التفسير، وفي إرشاد أهل العلم، ما يسدد خطوه في التدرج بمنازل القرآن، والترقي بمعارجه الإيمانية؛ حتى يكون من الْمَهَرَةِ به، تلاوةً وتعبدًا وبلاغًا! قال رب الرحمة - جل ثناؤه -: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧، و٢٢، و٣٢، و٤٠]. وإنما كان المخاطَبون بهذا القرآن في البدء قومًا أمِّيين، لا يكتبون ولا يقرؤون! ولا معرفة لهم حتى بمبادئ العلوم، بَلْهَ تخصصاتها المعقدة! وإنما كانوا على فطرة صافية من اللسان العربي، تلقوا بها كلمات اللَّه؛ فجعلت منهم خير أمة

أُخرِجت للناس! وتلك خاصية هذا القرآن العظيم، وهي مستمرة إلى يوم الدين! قال - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

تلك حقيقة القرآن المجيد! فمن يتلقّى رسالاتها؟ مَنْ يُسْلِمُ نفسَه للّه فَيَدْخُل في ابتلاءاتها؟ مَنْ ينطلقُ في الناس ببلاغاتها، ويبادرُ إلى عقد مجالسها؟ ويجدِّدُ عُمْرَانَ روحِه بِلَبِنَاتِهَا وبركاتها؟ من يُطَهِّرُ نَفْسَهُ بأنوارها وأمطارها؟ من يجاهدُ حزبَ الشيطان ببوارقها؟ من يتجرَّد لها فيكون من أهلها ورجالها؟ ولَعَسَاهُ يكون من أهل اللّه وخاصته؛ بمكابدة آياتها! وإنما: « أهلُ القرآن هم أهل اللّه وخاصته! »[1].

فيا عبد اللّه بحق! هذا زمانك قد أتى! فحتى متى

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٢١٦٥.

الانتظار؟.. حتى متى؟ وإلى متى..؟ ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه اللَّه!

الخميس، ٧ أيار / مايو ٢٠٠٩م

خادمكم المحب : فَرِيـدُ الأَنْصَارِي

* * *

الرسالة الثالثة

إِنَّهُ وَحْيٌ، فَتَعَرَّضُوا لَه!

سألني بعض الْمَشُوقِينَ بنور القرآن قال: هذا كتاب اللَّه بين أيدينا، فكيف نقتبسُ نورَه؟ كيف نتلقَّى رسالاته؟ كيف نشعرُ بِوَقْعِ كلماته في قلوبنا؟ كيفَ نكتشفُ ذلك النورَ الذي تتحدث عنه الآيات؟ وكيف نتلقَّى ذلك الروحَ الذي تفيض به الكلمات؟ ماذا نصنعُ حتى نتفاعل مع القرآن كما تفاعل معه جيلُ الصحابة الكرام، ومَنْ سار على أشواقهم من الصديقين والشهداء والصالحين عبر التاريخ؟ أوَ ليس هذا القرآن نفسه هو الذي تخرجت به هذه الأمة؟

قلت: بلى! إلا أنَّ المشكلة اليوم هي أننا نقرأ القرآن على أنه مجرد مصحف لا رُوح فيه! صحيحٌ أننا نؤمن أنه نزل في يوم ما من السماء.

وأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - تلقَّاه عن ربه رسالةً إلى العالمين كافة.. تلك عقيدةٌ لا يصحُّ إيمان المسلم إلا بها. نعم، ولكن المشكلة هي أن الشعور بهذه الحقيقة العظيمة اليومَ شعورٌ ميت لا حياة فيه! لأننا في الغالب نربطه بالتاريخ الذي كان فقط، وكأن الطبيعة التنزيلية للقرآن شيء كانَ وانتهى، ولا معنى له اليوم في حياتنا المعاصرة! إنه في مخيلتنا العامة أشبه ما يكون بحجر أو نَيْزَكٍ سقط يومًا ما من نجم مُذَنَّبٍ عابر في السماء، فكان أولَّ سقوطه حاميًا ملتهبًا! لكنه لم يزل يبرد شيئًا فشيئًا حتى خَفَتَ، ثم انطفأت جمرته فصار حجرًا كأي حجر! وأقصى ما ينتبه إليه الناس اليوم هو أنه حجر له قصة، وهي: أنه نزل في يوم ما من السماء.. وهنا ينتهي الأمر!

فإذا فزعنا إلى التفاسير والدراسات القرآنية؛ وجدناها في الغالب تحاول تحليل طبيعته على المستوى الشكلي، فتدرس المكونات اللغوية

والبلاغية والطبقات الدلالية لهذه الآية أو تلك، وكأنها مجرد معاجمَ للمعاني ليس إلا! تمامًا كما يدرس الجيولوجيون مكونات الحجر المعدنية، وطبيعتها، وتاريخها، ومستويات بريقها واختلاف ألوانها وأحجامها... إلخ.

هكذا نتعاملُ مع القرآن في كثير من الأحيان. إنَّ ذلك كله شيء مهم.. ولكنه لا يرتقي بالتعامل مع كتاب اللَّه من مستوى « المصحفية » إلى مستوى « القرآنية »! إن أهم فصل في تعريف القرآن المجيد هو أنه: « كلام اللَّه رب العالمين! ».

وما كان لكلام الحي الذي لا يموت أن يبلى أو يموت! ولكن الذي يموت هو شعورنا نحن! والذي يبلى هو إيماننا نحن! أما الوحي فهو عين الحياة! وحقيقة « الوحي » هي أول صفة يجب أن نتلقى بها القرآن الكريم، وهي أهم جوهر يجب أن ننظر من خلاله إلى كلماته؛ بما هي كلمات اللَّه رب العالمين! ذلك أن كلام اللَّه لا يتنزل على

الرسل إلا وحيًا.. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

وهذا شيء مهم جدًّا! فكونُ القرآن « وَحْيًا » هو المعراجُ الرئيس الذي به يرتقي القارئ له إلى سماء القرآنية! إنه المصطلح المفتاح الذي به يكتشف طبيعة القرآن، ويبصر نوره، ويتلقى حقائقه الإيمانية ورسالاته الربانية، ويشاهد شلالات الجمال والجلال حية متدفقة من منابع القرآن! إن كون القرآن « وَحْيًا » ليس معنًى تاريخيًّا فحسب؛ بل هو معنى مصاحب لطبيعته أبدًا! بمعنى أن صلة القرآن بالسماء هي صلة أبدية..!

إن المشكلة هي أننا عندما نقرأ القرآن نربط الوحي فيه بذلك الماضي الذي كان! بينما الوحي نورٌ حاضرٌ، وروح حيٌّ، يتدفَّق الآن في كل آيات

القرآن، وينبع من تحت كل كلماته، شلالاتٍ من كوثر ثَجَّاجٍ! لقد قُبِضَ رسولُ اللّه ﷺ فانقطع الوحي التاريخي، أي انقطع فعلُ التنزيل الذي كان في الزمان والمكان، بواسطة الملاك جبريل عليه السلام. ولكن بقيَ الوحيُ القرآني، أو الوحي/ القرآن! والوحي هنا صفة اسمية من أسماء القرآن المجيد، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤]. وقد قال أبو بكر لزيد بن ثابت – رضي اللّه عنهما –: « إِنَّكَ شَابٌّ عَاقِلٌ لا نَتَّهِمُكَ، قَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ الْوَحْيَ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ! »[1]، وإنما سمي القرآن « وَحْيًا » لأنه نزل كذلك، قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

فالوحي – كما ترى – له دِلالتان: الوحي الحَدَثُ، أي النزولُ الخفي من السماء، وهو سببُ

---

(١) رواه البخاري.

النبوة، وهو الذي انقطع. والوحي الصفة، وهو لا ينقطع أبدًا. وعليه سمي هذا القرآن المجيد « وَحْيًا ». فالمعنى الأول مصدري، أي أنه مصدر لفعل « وَحَى، يَحِي وَحْيًا » ويقال: « أوحى » أيضًا كما هو في القرآن الكريم. وأما المعنى الثاني فهو « الوحي » بالمعنى الاسمي لا المصدري، أي بما هو اسم من أسماء القرآن، وصفة من صفاته الجوهرية الثابتة. وهو معنى متولد من المعنى الأول؛ فلأن القرآن نزل وحيًا من اللَّه؛ صارت له تلك الصفة فسُمي: « وَحْيًا »، وأصبح هذا اللفظ اسمًا عَلَمًا على كتاب اللَّه تعالى. فلك أن تقول: القرآن هو الوحي، والوحي هو القرآن. والآيات المذكورة قبلُ دالة على هذا.

قال الإمام الطبري - رحمه اللَّه -: « أما (الوَحْيُ)، فهو: الواقع من الْمُوحِي إلى الْمُوحَى إليه؛ ولذلك سَمَّتِ العربُ الْخَطَّ والكِتَابَ « وَحْيًا »؛ لأنه واقعٌ فيما كُتِبَ، ثَابِتٌ فيه » عند

تفسير قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وعلى هذا جرتْ معاجم اللغة.

قال صاحب الصحاح: « الْوَحْيُ: الكتابُ، وجمعه وُحِيٌّ. والوَحْيُ أيضًا: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفيُّ، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وَحَيْتُ إليه الكلامَ وأوْحَيْتُ، وهو: أن تكلِّمه بكلامٍ تخفيه »[1]، وفي اللسان: « والوَحْيُ: المكتوبُ، والكِتَابُ أَيضًا. وعلى ذلك جمعوا فقالوا: وُحِيٌّ، مِثْلُ حَلْيٍ وحُلِيٍّ »[2].

وقد يقول قائل: هذه حقائق بَدَهِيَّةٌ فَلِمَ العَنَاءُ؟

أقول: نعم؛ ولكننا ننساها فنضل الطريق إلى القرآن!.. وإنما مشكلة أجيالنا المعاصرة أنها

---

(١) الصحاح: مادة « وحي ».

(٢) لسان العرب: مادة « وحي ».

أضاعت بَدَهِيَّاتِهَا! حتى صرنا في حاجة إلى إعادة تقرير معنى « الدين » نفسه![١].

* نعم! إن تَلَقِّي القرآن بوصفه « وَحْيًا » هو المفتاح الأساس لاكتشاف كنوزه الروحية، والتخلق بحقائقه الإيمانية العظمى! النور.. تلك هي طبيعة الوحي وصِبْغَتُهُ، وصفته الثابتة للقرآن، حقيقة جوهرية لا تنفك عنه.. والنور روحٌ، لكنه روحٌ يسري في كلمات القرآن بخفاء، وإنما المؤمنون وحدهم يبصرون جداوله الرقراقة، وهي تتدفق بالجمال والجلال! ولكن كيف يكون هذا؟ لنعد إلى مثال النجم المذنَّب!..

إن ذلك النَّيْزَكَ الناري الواقع من السماء إلى الأرض، ما يزال يحتفظ بأسرار العالم الخارجي الذي قَدِمَ منه! إنه فِهْرِسْت مكنون، لو تدبرته لوجدته يكتنز خريطةَ الكون كله! ويحتفظ من الأسرار ما عجزت عن إدراكه أحدث مراصد

---

(١) انظر تقرير مفهوم « الدين » في كتاب الفطرية: (٩٦).

الفلك، وأعقد معادلات الرياضيات، وأحدث نظريات الفيزياء!.. إنه لم يفقد حرارته ولا طاقته قط! وإنما حُجِبَ لهيبُه رحمةً بالناس، وتيسيرًا لهم، وتشجيعًا للسائرين في الظلمات على حمل قنديله الوهاج، والقبض عليه بأصابع غير مرتعشة، بل على احتضانه وضمه إلى القلب، نورًا متوهجًا بين الجوانح!

إن مَثَلَ القرآن ومَثَلَ الناس في هذا الزمان، هو كثلاثة مسافرين تَاهُوا في الصحراء بليل مظلم! صحارى وظلمات لا أول لها ولا آخر..! فبينما هم كذلك إذ شاهدوا في السماء نجمًا مُذَنَّبًا لاهِبًا، لم يزل يخرق ظلمات الأفق بنوره العظيم، حتى ارتطم بالأرض! فافترقوا ثلاثتهم إزاءه على ثلاثة مواقف:

فأما أحدهم فلم يُعِرْ لتلك الظاهرة اهتمامًا، بل رآها مجرد حركة من حركات الطبيعة العشوائية!

وأما الآخران فقد هرعا إلى موقع النَّيْزَكِ فالتقطا أحجارهُ المتناثرة هنا وهناك.. وكانا في تعاملهما مع تلك الأحجار الكريمة على مذهبين:

فأما أحدهما فقد أُعْجِبَ بالحجر؛ لِمَا وجد فيه من جمال وألوان ذات بريق، وقال في نفسه: لعله يستأنس به في وحشة هذه الطريق المظلمة، ثم دسَّه في جرابه وانتهى الأمر! وأما الآخر فقد انبهر كصديقه بجمال الحجر الغريب!

وجعل يقلبه في يده، ويقول في نفسه: لا بد أن يكون هذا المعدن النفيس القادم من عالم الغيب يحمل سِرًّا! لا يجوز أن يكون وقوعه على الأرض بهذه الصورة الرهيبة عبثًا! كلَّا كلَّا! لا بد أن في الأمر حكمةً ما! ثم جعل يفرك حجرًا منه بحجر، حتى تطاير من بين معادنه الشَّرَر..! وانبهر الرجل لذلك؛ فازداد فركًا للحجر، فازداد بذلك تَوَهُّجُ الشَّرَرِ.. وجعلت حرارة معدنه تشتد شيئًا فشيئًا؛ حتى وجد ألم ذلك بين كفيه! بل جعلت الحرارة

الشديدة تسري بكل أطراف جسمه، وجعل الألم يعتصر قلبَه، ويرفع من وتيرة نبضه..! لكنه صبر وصابر، فقد كان قلبه - رغم الإحساس بالألم والمعاناة - يشعرُ بسعادة غامرة، ولذة روحية لا توصف!..

وما هي إلا لحظات حتى تحوَّل الحجر الكريم بين يديه إلى مشكاة من نور عظيم! ثم امتد النور منها إلى ذاته، حتى صار كل جسمه سَبِيكَةً من نور، وكأنه ثريا حطت سُرُجَهَا ومصابيحَها على الأرض! وجعل شعاع النور يفيض من قلبه الملتهب فيعلو في الفضاء، ويعلو، ثم يعلو، حتى اتصل بالسماء!..

كان الرجل يتتبَّع ببصره المبهور حبل النور المتصاعد من ذاته نحو السماء، حتى إذا اتصل بالأفق الأعلى تراءت له خارطة الطريق في الصحراء! واضحة جلية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك! ووقع في قلبه من الفرح الشديد

ما جعله يصرخ وينادي صاحبيه معًا: أخويَّ العزيزين!.. هَلُمَّا إِليَّ!.. إِليَّ! لقد وجدت خارطة الطريق!.. لقد من اللَّه علينا بالفرج..! أخويَّ العزيزين!.. اُنْظُرَا: اُنْظُرَا!.. هذا مسلك الخروج منَّ الظلمات إلى النور! شَاهِدُوا شُعَاعَ النورِ المتدفق من السماء.. إنه يشير بوضوح إلى قبلة النجاة!.. فالنجاةَ النجاةَ! أما الذي احتفظ بقطعة من الحجر في جرابه فلم يتردد في اتباع صاحبه والاقتداء بهديه؛ لأنه كان يؤمن بأن لهذا المعدن الكريم سِرًّا! ولقد أبصر شعاعه ببصيرة صاحبه، لا ببصيرة نفسه!

وأما الأول الذي لم ير في النجم الواقع على الأرض شيئًا ذا بال؛ فإنه رغم نداء صاحبه له لم يبصر شيئًا من أمر الشعاع المتدفق بالهدى! لقد كان محجوبًا باعتقاده الفاسد، فلم تَعْكِسْ مِرْآةُ قلبِهِ الصَّدِئَةُ نورًا! ولذلك لم يصدق من نداء صاحب النور شيئًا من كلامه، بل اتهمه بالجنون

والهذيان! ومضى وحده يخبط في الصحراء، ضاربًا في تيه الظلمات! ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

ثم انطلق الرجلان المهتديان يسيران في طريق النور.. وإنما هما تابع ومتبوع، فالمتبوع داعية يرى بنور اللَّه.. ويسير على بصيرة من ربه؛ بما كابد من نار الحجر وشاهد من نوره! والثاني مؤمن بالنور مصدق بدعوة صاحبه، يسير على خطاه وهديه.. ولكنه يكابد في سيره عثرات من حين لآخر وهَنَاتٍ؛ وذلك بسبب ما يلقي إليه الشيطان من وساوسَ ومخاوف! وليس لديه ما يدفع به كيد الشيطان إلا ما يتلقى عن صاحبه! وبينما هما كذلك يسيران مطمئنين في طريقهما، إذْ سأل الرجلُ التابعُ صاحبَه المتبوع فقال: أُناشدك اللَّه أن تخبرني كيف اكتشفت سر النور في هذا الحجر الكريم! لكنَّ صاحب النور وجد أن اللغة عاجزة عن بيان حقيقة النور لصاحبه، فما كان منه

إلا أن دَسَّ قطعة من الحجر الذي كان بين يديه في كف السائل؛ فصرخ الرجل من شدة حر الحجر الكريم والتهابه! وجعل يقلبه بين يديه ثم ألقاه بسرعة في كف صاحبه! لكن صاحب النور قبض عليه بيد ثابتة مطمئنة! فعجب منه رفيقه وقال: إنما أنت قابض على الجمر! قال: نعم، هو كذلك! إنه القبض على الجمر! لكن لذة الروح بما يشاهد القلب من نور، وبما يجد من سعادة غامرة؛ ترفعُ عن الجسد الشعور بالألم، وتمنع حدوث الاحتراق! وإن نار الشوق والإيمان لهي أقوى ألف مرة ومرة من نار الكفر والفسوق والعصيان! ولو وقعت الأولى على الثانية؛ لجعلتها سلامًا وأمانًا على قلب العبد المؤمن! ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾[الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

نعم يا رفيقي في طريق النور! إنَّ مكابدة القرآن

في زمان الفتن، والصبر على جمره اللَّاهِبِ في ظلمات المحن؛ تلقيًا، وتزكيةً، وتدارسًا، وسيرًا به إلى اللَّه في خلوات الليل؛ هو وحده الكفيل بإشعال مشكاته، واكتشاف أسرار وحيه، والارتواء من جداول روحه، والتطهر بشلال نوره.. النور المتدفق بالحياة على قلوب المحبين، فيضًا ربانيًّا نازلًا من هناك، من عند الرحمن، الملِك الكريم الوهاب! فتدبر يا صاح هذا المشهد القرآني الجليل! في بيان حقيقة تَلَقِّي محمد ﷺ للوحي عن الملَك العظيم جبريل عليه السلام، حيث تلقَّى عنه ما تلقَّى من قرآن كريم، وحيًا من اللَّه رب العرش العظيم، وشاهدَ ما شاهدَ خِلالَ ذلك من حقائق إيمانية، ومنازل روحانية، ضاربة في عمق الغيب الأعلى! ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩

فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾
أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ
سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ
مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ
ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[النجم: ١ - ١٨].

ذلك هو القرآن الوحي! إنه حَجرٌ كريم، بل إنه نجمٌ عظيم وقع على الأرض! ولم يزل معدنه النفيس يشتعل بين يدي كل من فرَكَه بقلبه، وكابده بروحه، تخلقًا وتحققًا! حتى يرتفع شعاعُه عاليًا، عاليًا في السماء، دالًّا على مصدره وأصله، هناك بموقعه الأعلى في مقام اللوح المحفوظ! ومشيرًا لِمَنْ عَلُ ببرقه العظيم إلى باب الخروج..! فهنيئًا لمن تمسك بحبله، واتصل قلبُه بتياره، وتزود من رقراق أسراره، ثم مشى على الأرض في أمان أنواره!

نعم! ذلك هو القرآن الوحي، الذي يصل قارئه وَحْيًا يملأ السماء مباشرةً.. من أول كلمة

يقرؤها! فإذا به يُطل على عالم الشهادة من شرفات عالم الغيب! بصائر قرآنية واضحة ومشاهدات، لا يضام في حقائقها شيئًا! بصائر ومشاهدات لا تلبيس فيها ولا تدليس، ولا خرافة ولا تخرصات! وإنما هو نور الفرقان! قال ﷻ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

نعم! ذلك هو القرآن الوحي!.. فمن يَفْرُك جمره؟ ومن يقتبس من حر آياته نورَه؟ فعسى أن يترقى في معراجه إلى مقام الروح الأعلى! وعساه أن يكون بذلك من المبصرين؛ فيشاهد خارطة الطريق..!

أيها القابضون على الجمر..!

أيها المراقبون لنيزك السماء..!

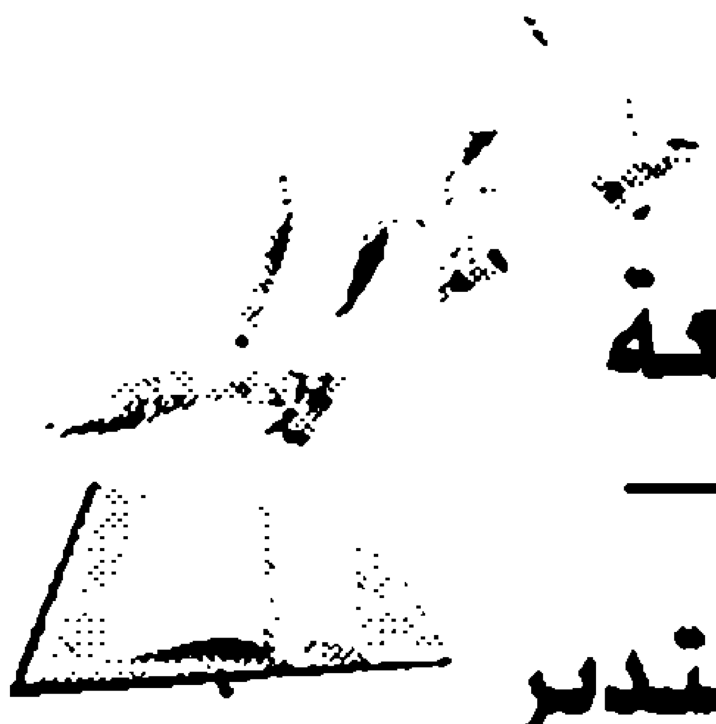
إنه وَحْيٌ، فتعَرَّضُوا لَهُ! ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه اللَّه..!

الأحد، ٣٠ أيار/ مايو ٢٠٠٩م

محبكم: فَرِيدُ ٱلأَنْصَارِي

* * *



الرسالة الرابعة

حول مفهوم التدبر

كتبَ أخونا « سعد » كلمات قيمة، ترجمَ فيها إشكالًا مهمًّا، أو شُبهة تعرضُ لكثير من الناس، حول تدبر كتاب اللَّه ومدارسة آياته. وكانَ فيما قال - أسعده اللَّه -: « لا شك أنه من اللافت فعلًا شدة إعراض الناس عن القرآن الكريم! فأغلبُ الناس لا يُقبلون عليه إلا مرة في السنة أو في سنوات! [ثم قال:] يبدو لي أن أحد الأسباب التي تكمن وراء هذا الإعراض هو « تهيُّب » الإقبال على القرآن مباشرة ودون واسطة. صحيحٌ أن من الناس من يتفادى التدبر؛ لأنه لا يعرف قيمة القرآن! ولكن هنالك أيضًا صنف من المسلمين يخافون أن يُعْمِلُوا فكرهم في آيات اللَّه - وإن كان بحضور التفسير! -؛ لأنه « شيء جديد وغير مألوف! »، ولأنه « اجتراء »

على اللَّه! فما هي الضوابط التي ينبغي الالتزام بها أثناء تدارس القرآن أو تدبره؟ ما الذي يضمن أن العبد لن ينجرف وراء خواطر شيطانية، وهو يظنها رحمانية؟ وإلى أي حد يمكن أن يقول « برأيه » في استخراج معاني القرآن وحقائقه الإيمانية؟ أعتقد أن توضيح هذه النقاط مهم للغاية، خاصة وأنني أعرف بعض الصالحين ممن يخافون فعلًا أن يتدبروا القرآن.

ولقد سمعت بأذني أحدهم يقول لصديق لي حين سمعه يتدبر آية من سورة العلق: « هل تريد أن تكون مفسرًا؟ »!! فَوَضْعُ هذه الحدود كفيل - إن شاء اللَّه - بتشجيع الناس على الإقبال على القرآن دون خوف أو وجل.. والسلام عليكم ».

وعليكم السلام ورحمة اللَّه وبركاته..

بارك اللَّه فيك أخي سعدًا! تساؤلٌ في غاية الأهمية، وملحوظة في غاية الدقة! ولقد أشرتُ إلى بعض حقائق التدبر في كتيب « مجالس

القرآن »، وكشفتُ هنالك عن طبيعة الإشكال. ولقد استقريت - بتوفيق اللَّه - عشرينَ ضابطًا لمجلس التدارس والتدبر؛ ما يحفظه - بإذن اللَّه - عن الشرود والانحراف.

ولعلَّ الأحبة يجدون في الطبعة الجديدة للكتاب - بزياداتها - ما يكفي لذلك، إن شاء اللَّه، وبه الثقة. وإنما المحفوظ من حفظه اللَّه! وإنما الذي أفزعني ههنا هو ما حكاه « سعدٌ » عن بعض الإخوان، من الاستعظام لفعل التدبر، والإنكار على المتدبر بما يشبه السخرية! ولذلك فقد أحببت نزع ما يلقيه الشيطان في النفس - تحت ستار الورع وذريعة التقوى! - من الصدِّ عن تدبر كتاب اللَّه! وحرمان الأمة من أعظم أصلٍ في منهاج التعامل مع رسالات اللَّه! ويمكنُ توضيح القول ههنا حول التدبر بطريقة أخرى، وبيان ذلك - بحول اللَّه - هو كما يلي:

أولًا: لا بدَّ من بيان أن التدبر هو غير التفسير!

هذا أمرٌ مهم جدًّا! ونحن نعلم أن بعض العلماء المعاصرين قد استعملهما على سبيل الترادف. وهو غير صحيح! فالتفسيرُ بيانٌ وشرح للمعنى، بينما التدبر اتعاظ بالمعنى واعتبارٌ به وتذكر! وبينهما فرق كبير..! إن التفسير من الفَسْرِ، وهو: الكشف والبيان؛ ولذلك سمي بيان كتاب اللَّه تفسيرًا؛ لأنه يكشف اللثام عن معانيه اللغوية والسياقية والشرعية، باستعمال قواعد التفسير المعروفة عند أهله. وهذا هو علم التفسير.

قد كنا - مع بعض إخواننا - نتدارسُ كتاب الشيخ العلامة « عبد الرحمن حبنَّكة الميداني » - رحمه اللَّه -: « قواعد التدبر الأمثل لكتاب اللَّه ﷻ »؛ فوجدنا أنما هو كتاب في قواعد التفسير! وهو كتاب من العمق والدقة بمكان! لكنه لا تدبُّر فيه بالمعنى القرآني للكلمة! وإنما هو قواعدُ منهجية تضبط عمل المفسر لكتاب اللَّه.

أما التدبر - من التفعل - فهو: النظر إلى دُبُرِ

الشيء، أي التأمل في دَوَابِرِ الأمور المتوقعة، بمعنى النظر إلى عاقبتها، وما يمكن أن تؤول إليه. كما يدخل فيه النظر في دَوابر الأمور الواقعة من قبلُ؛ لمعرفة أسبابها ومقدماتها. وهذا لا يوجد في كتب التفسير إلا نادرًا؛ لأنه - في الغالب - عملٌ قلبي شخصي، ونظر نفسي لا ينوبُ فيه أحد عن أحد. وهل يستطيعُ أحد أن ينوب عن غيره في الخوف والرجاء، أو في الكسل والنشاط؟ هذا ممتنع عقلًا وطبعًا وشرعًا! اللَّهم إلا ما تعلق بربط الأسباب بمسبباتها - على المستوى الخارجي - وما كان في معناه.

ثانيًا: إن التدبر هو مرحلة ما بعد التفسير..! أي ما بعد الفهم للآية. لكن الفهم المطلوب لتحصيل التدبر إنما هو الفهم الكلي العام، أو بعبارة أخرى: الفهم البسيط. ولا يشترط في ذلك تحقيق أقوال المفسرين والغوص في دقائق كتب التفسير! وإلا صار القرآن موجهًا إلى طائفة محصورة

فقط! ومن ثم يمكن لأي شخص أن يتدبر القرآن بعد التحقق من المعنى المشهور للآية، يقرؤها من أي تفسير أو يسمعها.

إن التدبر حركة نفسية باطنية! تنظر إلى صيرورة النفس في الزمان والمكان، بالنسبة إلى احتمالين؛ **الأول**: احتمالُ متابعة القرآن والاستسلام لأحكامه وحكمه. والثاني: عكسه، وهو النكوص والتمرد والجحود والعصيان! ففي كلا الأمرين ينظر المتأمل إلى مآل الحال المحتمل! ذلك هو التدبر! ولذلك كان التدبر لغةً - كما ذكرنا - نظرًا إلى أدبار الحوادث ونتائجها، وربطًا للأسباب بمسبباتها، فيما وقعَ وفيما يحتمل أن يقع، على المستوى النفسي والاجتماعي. في الخير والشر سواء! إنه إِذَنْ ضرب من المحاسبة للنفس في ضوء القرآن، والمراقبة لأحوالها، في صيرورتها الذاتية والاجتماعية.

إنَّ التدبر إذن هو نظر في الآية باعتبارها

مبصارًا، يكشف عن أمراض النفس وعللها، ويقوم في الوقت نفسه بتهذيبها وتشذيبها، أي بتزكيتها وتربيتها. ومن ثم فإنه يكفي المتدبرَ ★ للقرآن أن يعلم المعنى العام للآية أو السورة، مما أُثِرَ عن جمهور السلف؛ ليدخل في مسلك التدبر. ولا شك أن علم العالم وخبرة المفسر تعطيه فرصةً أكبر بكثير؛ لتعميق التدبر في الآيات، والوصول بها إلى أرقى منازل الإيمان! ولكن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أن غير المختصين بالتفسير، أو حتى العوام محجوبون عن التدبر!

إنَّ غير العالم لن يعجز عن تدبر آية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مثلًا، والنظر في مآلات فعل الحمد في نفسه وفي المجتمع - على قدر طاقته طبعًا - وكذا مآلات نقيضه من النكران والجحود كيف يكون؟ وإن غير العالم إذا فسرتَ له أن «الفَلَق» هو الفجر؛ أمكنه آنئذ أن يتدبر قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن

شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق: ١، ٢]، وكذلك إذا علم أن «الْجُدَدَ» هي: الطرق والمسالك الجبلية، وأن «الغَرَابِيبَ» هي: الصخور السوداء؛ أمكنه أن ينطلق في آفاق تدبر قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧].

ولقد تعمَّدت أن أمثل بهذه الكلمات القرآنية الغريبة إلى حد ما، وإلا فجمهور المعجم القرآني من الميسور المعلوم، بل إن كثيرًا منه متداول في اللَّهجات العامية العربية! ولِمَ لا يُتَدبر؟

أليس يرى القارئ للآية المذكورة، مثلًا، مشهدَ نزول الماء من السماء؟

ليس يرى بعينيه آثار الغيث كلَّ ربيع في الروابي، والجنات، والبساتين، وأشكال الفاكهة والثمار، والجداول، والأنهار، والأطيار، بل في الحياة كلها؟

أليس ينظرُ إلى الجبال الشاهقة المنتصبة بهيئتها العظيمة بين يديه؟

ليس يرى مسالكها من بعيد تتلوى حولها خطوطًا حمراء وبيضاءَ على حسب لون الصخور والتربة الناسجة لها؟

أليس يعجب من مشهد الحجارة الصماء السوداء الراسية على قمم هذه الجبال أو تلك؟ فكل من أبصرَ عظمة الخالق في عظمة المخلوق، واتخذ آثار الصنعة مسلكًا يسير به إلى معرفة اللَّه فهو متدبر وهو متفكر! وهذا أمر ليس حكرًا على المفسرين ولا على الجيولوجيين، وإن كان لهؤلاء وأولئك من العلم ما يجعلهم يتفوقون ويسبقون به غيرهم، إذا أخلصوا النظر للَّه! نعم، ولكن اللَّه قد أتاح لكل ذي عينين، وأذنين، وقلب حي، أن يسلك إلى ربه عبر ما يسَّر اللَّه له من التدبر والتفكر.. ولربما سبق القنفذُ الفرس! وإنما ذلك على حسب صفاء القلب وإخلاص السير!

وإنني لأنسى كثيرًا، لكنني ما نسيت قط حَدَّادًا شابًّا في قريتي الصغيرة بجنوب المغرب، أواخرَ السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الميلادي الماضي.. وكانت الشيوعية آنئذ تنتشر في المغرب انتشار النار في الهشيم! وقد كان دُعاتها عندنا من بعض رجال التعليم وطلبة الجامعات، مع الأسف! وكان أحدهم يجلس إلى ذلك الحداد البسيط يعلمه « حقوق العمال » و« ديكتاتورية البروليتاريا! » وكأن مطرقته الثقيلة، وما كان يصنعه للفلاحين الصغار من مناجلَ ومَزَابِرَ ومِحَشَّاتٍ، كانت تذكره بشعار الشيوعية الشهير: « المطرقة والمنجل »! فطمعَ الأحمق أن يضمه إلى صفوف الشيوعيين! حتى إنه سار معه بعيدًا فجعل يشرح له عقيدة الإلحاد، وكيف أن « الدين أفيون الشعوب » على حد تعبير كارل ماركس! وكنتُ أنا أيضًا وأصحابي نجلس إلى هذا الحداد، فيحدثنا بحديث الشيوعي، ثم نتداول الكلام..

وإنني لا أنسى يومًا إذ أخرج من التنور حديدةً مُجَمَّرَةً، قد احْمَرَّ نصلها من النار حتى إنها لتكاد تذوب! ثم انهال عليها بالدق والطرق بقوة، وهو يقول دون أن يرفع رأسه:

« يا أخي.. إنهم ينكرون وجود اللَّه ووجود الآخرة! هكذا يقولون.. أما أنا فإنه لربما أصابتني أحيانًا شرارةٌ طائشة من هذا الحديد المجمَّر بين يديَّ؛ فتثقب ثوبي ثم جلدي، فيكون لها من الألم الشديد ما اللَّه به عليم! وإن ذلك ليكفيني ترهيبًا وتحذيرًا من نار جهنم! وإن صاحبنا الشيوعي كلما حدثني بحديثه قلت في نفسي: هذه مجرد ذرة من نار الدنيا، فترى كيف تكون نار الآخرة! وإنني لأرى بعينيَّ أن نار الدنيا هاته التي بين يديَّ لدليل كافٍ على وجود نار الآخرة! » كذا قال!

وإنني ما زلت إلى اليوم أعجب من عمق ملاحظة ذلك الحداد الفطري البسيط! وأتساءل في نفسي: أي تفكر هذا وأي تدبر؟ بل أي علم باللَّه

هذا وأي إبصار!.. حقًّا حقًّا! ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

هذا ضربٌ عجيب من التدبر لحقائق القرآن، ونوع من التفكر العميق في الوجود، وهو ممكن لكل الناس، خاصتهم وعامتهم على السواء. وأنت ترى أن اللَّه ﷻ أمر الكفار بالتدبر لكتابه! كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]. فإذا كان الكافرُ - وهو المجرد قطعًا من كل قواعد التفسير ومناهجه - مأمورًا بالتدبر فالمسلم أولى وأحرى!

إن المسلم - أي مسلم - إنما عليه أن يصطحب مختصرًا صغيرًا من كتب التفسير، كتفسير الجلالين مثلًا، أو أحد مختصرات ابن كثير، أو غيرهما؛ وذلك فقط حتى يضبط بُوصلة الاتجاه العام لمعنى الآيات، ثم يشرع آنئذ في

التدبر للقرآن، ولا حرج؛ لأن التدبر لكتاب اللَّه لا ينبني عليه حلال ولا حرام، ولا تصدرُ عنه فتوى ولا قضاء! وإنما هو مسلك روحي يقود القلب إلى التوبة والإنابة، وإلى مجاهدة النفس من أجل الترقي بمراتب العلم باللَّه!

أما صناعة التفسير والاستنباط فهذا هو الذي يخصُّ فئة محصورة من الناس وهم أهلُ الاجتهاد من العلماء، ممن يفتون ويقررون في القضايا والنوازل. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فذاك علم الخاصة. وأما التدبر - بما هو تذكُّرٌ واعتبار - فهو

لعامة المسلمين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وعليه؛ فالمفسر عالم وفقيه، يقوم ببيان الحقائق القرآنية والأحكام الشرعية، والتصدر للفتوى. بينما المتدبر مجرد متعظ وواعظ. وقد يجمع اللَّه للمرء بين الخيرين. والعالم الحق لا يصح له إلا ذلك! ومن ثم جاز لنا أن نقول: «كُلُّ عالِمٍ أو كلُّ مفسِّرٍ متدبرٌ، وليس كل متدبرٍ مفسِّرًا!» فتأمل..!

إن الذي يمتنع عن تدبر القرآن أو ينهى غيره عن ذلك؛ بدعوى أن التدبر أمر خاصٌّ بعلماء التفسير؛ إنما هو جاهل بهذا الفرق الجوهري الكبير بين التفسير والتدبر.. وأخشى أن يكون الشيطان قد لبَّس عليه تلبيسًا؛ ليحرمه هو في نفسه من نور القرآن! أو يجعله أداة لقطع الطريق أمام السائرين إلى اللَّه!

إن التدبر للقرآن مطلوبٌ من العالِم، ومن

المهندس، والطبيب، والأستاذ، والفلاح، والحداد، والنجار، والتاجر... إلخ! بل إن التدبر مطلوب من الكافر الأعجمي، إنجليزيًّا كان أو فرنسيًّا أو صينيًّا، أو ما كان! نعم! نعم! لكن فقط بعد أن تترجم له المعاني العامة للآيات! بينما التفسير إنما هو صناعة العلماء فقط.

ومصطلح « التدبر » في القرآن قريب من مصطلح « التفكر » وإن لم يكونا مترادفين. فكأن « التدبر » ينصرف استعماله غالبًا إلى تأمل القرآن، بينما « التفكر » ينصرف استعماله إلى تأمل الكون المنظور. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]. وإذا تأمَّلت وجدت نتيجة كُلٍّ من التدبر والتفكر واحدة، ألا وهي: الاتعاظ

والاعتبار! وهو ما حكاه الله عن الذاكرين المتفكرين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

إن هذا معناه أيضًا أن النظر « التفكري » في الكون ليس عملًا عقليًّا معقدًا، خاصًّا بعلماء الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات والبيولوجيا والطبيعيات... إلخ! نعم هم مشمولون بأمره، بل هم أولى به! لكن « التفكر » كالتدبر، مطلوب أيضًا من غير المتخصصين، بل حتى من العوام! كُلٌّ على قدر فكره!.. وما يدريك؟ لعل فلاحًا بسيطًا، يصل إلى عِبَرٍ للقلب لا يتحقق بها المتخصص الخبير! لأن نتائج كُلٍّ من التدبر والتفكر محض هبة من الرحمن، ومجرد هُدًى منه تعالى!

إن التدبر والتفكر يؤولان معًا إلى مصطلح قرآني مركزي ثالث، ألا وهو « التَّذَكُّرُ » بالذال المعجمة، أو « الِادِّكَارُ » بالدال المهملة،

ومشتقاتهما وهما سواء. قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٧].

وإنما يختص « التدبر » بتحصيل الذكرى عن طريق النظر في الآيات القرآنية. بينما يختص « التفكر » بتحصيل الذكرى بالآيات الكونية. هذا هو الغالب، وربما وجدت هذا بمعنى ذاك. إذ بينهما علاقة جدلية؛ لأن أحدهما يؤدي إلى الآخر. فالتدبر للقرآن يقودك إلى التفكر في الوجود، والتفكر في الوجود يعود بك إلى القرآن. وهما معًا في جميع الأحوال يثمران تَذَكُّرًا للقلب وذكرى.

ولا يقول عاقل بأن التذكر والذكرى يحتاج فيها الإنسان إلى خبرة علمية وتخصص دقيق! سواء في الشرعيات أو في الكونيات. كلا! كلا!.. إنما هو عمل قلبي محض، مفتوح لكل ذي قلب!

وبذلك قامت حجة اللَّه على جميع الخلق عربهم وعجمهم، خاصتهم وعامتهم! قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧].

وبذلك يتبين ما لتعقيد الضوابط والشروط للتدبر أو للتفكر، من خروج عن منهاج القرآن! قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

إن المتدبر أو المتفكر - كليهما - في حاجة إلى التحقق بأمرين اثنين: **الأول**: الفهم العام للآية قراءةً، أو سماعًا إن كان أميًّا. ويحسن أن يكون ذلك بمجلس مدارسة، تعلمًا وتعليمًا، على منهاج رسول اللَّه معلم الأميين ﷺ، **الثاني**: إخلاصُ النظر للَّه! وكلاهما بمقدور جميع الناس، إلا من رُفِعَ عنه القلم! قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ

ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. وهذا خطاب موجه في الأصل للكفار، فتأمل!

وأحب قبل ختام هذه الكلمات أن أعززها بإيراد أمثلة عن تدبر النبي ﷺ وتفكره. فالسنة هي البيان الرئيس للقرآن الكريم ومفاهيمه. وأمثلة أخرى عن تدبر الصحابة رضي اللَّه عنهم، وكذا بعض التابعين.

ففي مشهد من أَجَلِّ مَشَاهِدِ النبوة، لم يزل رسولُ اللَّه ﷺ يبكي في صلاته من تدبره وتفكره؛ إذْ أَرَاهُ اللَّهُ من أسرار مَلَكُوتِهِ ما أَرَاهُ؛ حتى بكت الأرض ببكائه عليه الصلاة والسلام!.. فقد سَأَلَ عُبَيْد بْنُ عُمَيْرٍ عائشةَ رضي اللَّه عنها، قَالَ: «أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ! قالَ: فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي قَالَ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ! ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي!» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ.. قَالَتْ:

فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ! قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ! قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ! فَجَاءَ بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: « **أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟.. لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا!** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] »[١].

وقد ورد التدبر والتفكر ههنا بمعنًى واحد كما أشرنا إليه من قبل، لارتباطهما الجدلي. فقوله ﷺ: « **وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا!** » هو بمعنى: لم

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه. وقال الشيخ الألباني: إسناده جيد، وحسنه في صحيح الترغيب.

« يتدبرها » لأن تدبرها مُفْضٍ بالضرورة إلى التفكر في خلق السموات والأرض؛ ولذلك عبَّر هنا بالتفكر. وأما وعيده - عليه الصلاة والسلام - للممتنع عن التفكر بالويل؛ فهو دليلٌ قوي على وجوب التفكر والتدبر - إجمالًا - على جميع الناس! سواء منهم العالم والعامي، كُلٌّ على ما يسر اللَّه له.. فتأمل!

وعن أبي بن كعب ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا ذهب ثلثُ الليل، قام فقال: « **يا أيها الناس!.. اذكروا اللَّه! جاءتِ الرَّاجِفَةُ تَتبَعُهَا الرَّادِفَةُ! جاء الموت بما فيه! جاء الموت بما فيه!...** »(١).

ولا يخفى ما في الحديث من تضمين لآيتي النازعات: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ [النازعات: ٦، ٧]. وما في ذلك من تدبر عجيب لهذه الحقيقة الإيمانية في جوف الليل؛ وذلك

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني في الصحيحة، وفي صحيح الترمذي، وصحيح الجامع الصغير.

لِشَبَهِ الليل بظلمة القبر من جهة، ولأن الليل - من جهة أخرى - هو موتٌ لحركة النهار! وفي ذلك أيضًا إشارة إلى أنَّ على المؤمن أن يجعل تفكره في الظواهر الكونية مرتبطًا بتدبره للآيات القرآنية؛ بسبب ما ينتج عن ذلك من التشمير والجد والعمل! حيث تقع الآيات بعد ذلك على النفس الكسولة الغافلة، موقع السوط اللاهب على ظهر الدابة الخاملة! فتقفز مسرعة بصاحبها في الطريق إلى اللَّه!

وكذلك كان تدبرُ أصحاب رسول اللَّه ﷺ.. فعن التابعي العابد الزاهد ابن أبي مليكة رحمه اللَّه، قال: « صَحِبْتُ ابنَ عباس - رضي اللَّه عنهما - من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل قام شَطْرَ الليل! فَسُئِلَ: كيف كانت قِرَاءَتُهُ؟ قال: قرأ: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [ق: ١٩]، فجَعلَ يُرَتِّـلُ ويُكْثِرُ في ذلك النَّشِيج! »[١]. والنَّشِيجُ:

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٤٢).

شدة البكاء، إذا هاج على صاحبه؛ فبكى بصوت مخنوق في صدره، فصار له أَزِيزٌ كأزيزِ القِدْرِ أو الْمِرْجَلِ!

وفي تفسير الطبري: « أن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، قال: ألم ترَ إلى الرأس الْمُشَيَّطِ بالنار، وقد قَلُصَتْ شفتَاه وبدت أسنانُه! »[١]. يقصد التمثيل التدبري للمعنى برأس الكبش الْمُشَيَّطِ، أي بعد تشويطه بالنار. تقول: شَوَّطَ وشَيَّطَ، سواء. وهذا تدبر عجيب؛ لما فيه من ربطٍ للآيات القرآنية بالمشاهَدَات اليومية في الحياة الدنيا - رغم عظم الفرق - ولكن الاتعاظ بالصغير الحقير أدعى إلى الاتعاظ بالكبير الخطير!

وفي ترجمة عبد اللَّه بن عمر - رضي اللَّهٰ عنهما - في الإصابة لابن حجر، أنه: « كان ﷺ

(١) انظر تفسير الطبري للآية: (١٠٤) من سورة « المؤمنون ».

إذا قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ... ﴾ الآية [الحديد: ١٦] يبكي حتى يغلبه البكاء..! »[١].

وورد « أن أبا طلحة ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ...﴾ الآية [التوبة: ٤١]، فقال: أرى ربي يستنفرنا شيوخَنا وشُبَّانَنَا! جهزوني أيْ بَنِيَّ! جهزوني! [يعني للجهاد! وكان يومها قد شاخ وكَبُرَ!] فقال بنوه: قد غزوتَ مع رسول اللَّه ﷺ ومع أبي بكر وعمر - رضي اللَّه عنهما - ونحن نغزو عنك! [أي بعدما عجزت] فقال: جهزوني! فركب البحر، فمات. فلم يجدوا له جزيرة [لدفنه] إلا بعد سبعة أيام! فدفنوه فيها ولم يتغير! »[٢].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا

---

(١) تنظر ترجمته في: « مَن اسمه عبد اللَّه ».

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٥٠٧).

مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩]، قال الإمام القرطبي: « وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه..! ضَجُّوا إلى اللَّه تعالى من الصغائر قبل الكبائر! »[١].

وروى الإمام البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن الواعظ الكبير مالك بن دينار أنه رحمه اللَّه: « قرأ هذه الآية: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ... ﴾ الآية [هود: ٨٨]. قال: « فَأُسَمَّى في القيامةِ مَالِكًا الصَّادِقَ، أو مَالِكًا الكاذبَ! »[٢]. وهو بذلك يُنَـزِّلُ مضمون الآية على نفسه - حيث كان واعظًا - فجعلَ يحاسبُ نفسه بميزان القرآن، ويتدبر الآية بالنظر إلى نفسه، مشفقًا من حالها ومآلها، وما قد يكون من

(١) انظر تفسير القرطبي للآية: (٤٩) من سورة الكهف.

(٢) شعب الإيمان رقم الأثر (١٨٠٢).

مصيرها! قصد تهذيبها، وكسر شوكة غرورها، وتصفية مقاصدها، وتجريد إخلاصها لربها! وهو من أجلِّ ضروب التدبر والتفكر!

وفي الزهد لأحمد بن حنبل - وغيره - أن مالكَ بن دينار أيضًا قرأ هذه الآية: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [الحشر: ٢١]، فبكى، وقال: « أقسم لكم! لا يؤمن عبدٌ بهذا القرآن إلا صدع قلبَه! »[١].

اللَّه أكبر..! ألا ما أجله من تدبر! وما أدقه من تفكر! لقد وضع مالك بن دينار - رحمه اللَّه - قلبَه موضع الجبل! فكيف تراه يكون؟ أيكون أشد صلابةً من الجبل؟ كيف بقلب يتلقى القرآن حق التلقي، كيف به وهذا الجبل قد خشع له وتصدع!؟

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل، رقم الأثر (١٨٧٨). والأثرُ أورده أيضًا أبو نعيم في الحلية عند ترجمة مالك بن دينار، كما أورده السيوطي في الدر المنثور عند تفسير الآية: (٢١) من سورة الحشر.

ذلك هو التدبر.. وإن الأمثلة في مثل هذا لأكثر من أن تحصى! وأنت تلاحظ أن هذه النصوص جميعًا ليست من قبيل التفسير بمعناه الاصطلاحي الخاص، وإنما هي مجرد تعبير عن المشاعر الخاصة، والمواجيد الجياشة، الحاصلة في النفس عند تلاوة الآيات، وما يخالط القلب من الرَّغَبِ والرَّهَبِ، والخوف والرجاء، في طريق السير إلى اللَّه! كما أن فيها تنزيلًا للآيات على واقع النفس، أو واقع المجتمع، أو على أحوال الطبيعة حول الإنسان، ومشاهدةً لبروق الوعد والوعيد، من خلال تقلبات الليل والنهار. وفضحًا لغش النفس وضعفها؛ بتسليط كشافات القرآن عليها!

كما أن فيها مشاهدةً للعزائم العالية التي طلبها اللَّه ﷻ من العباد، وما ينتصب دونها من مشاقِّ الطريق ومكارهها! ولذلك ترى المتدبرين للقرآن والمتفكرين في آياته الكونية، بين بَاكٍ مختنق

بالأنين، أو مُطْرِقٍ مهموم حزين! ولا يخرج كلاهما من مجلسه أو خلوته إلا بعزيمة تهد الجبال! وإن الواحد من هذا الطراز البشري العظيم لهو بأمة!

ذلك هو التدبر، وذلك هو التفكر، وتلك هي الذكرى.. وإنما ثمرة ذلك كله هو تهييج النفس على العمل، وتنشيط القلب على السير، وتوثيق إرادة النفس على عزائم الأعمال!.. فكذلك كان تدبرهم للقرآن، وكذلك كان تفكرهم في الزمان.. فما بالنا نحن؟ إنما نحن في حاجة إلى قلوب مثل قلوبهم، وإخلاص مثل إخلاصهم!

وإنني لعلى يقين لو أن الناس اليوم يُحْيُونَ هذا المسلك في النفوس من جديد، ويتداولون القرآن في المجتمع على هذا الوِزَانِ؛ لتدفقت أنهار النور على الظلام! ولكان للأمة في هذا العصر شأن آخر..! وإنه لَيَكُونَنَّ إن شاء اللَّه! وما ذلك ببعيد..! فإنني أرى عبادًا للَّه خُلَّصًا قد

بدؤوا يرفعون راية القرآن فوق تلال قلوبهم!..
وإن نصب راية القرآن على تلال القلوب لهو:
﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٣].

اللَّهم ألهمنا مراشدنا، واسلك بنا سبيل الهدى، واجعلنا سببًا لمن اهتدى!

الاثنين، ٨ حزيران/ يونيو ٢٠٠٩م

المحب لكم: فَرِيدُ ٱلأَنْصَارِي

عفا اللَّه عنه وعن المؤمنين

* * *

الرسالة الخامسة والأخيرة

الإخلاص بوصلة الطريق..!

ألا ما أخفى مساربَ الشيطان إلى النفس، وما أشقاها! ألا ما أشدها التواءً وما أدهاها! وإن شئت فقل: ألا ما أظهرها وأبينها لمن يراها! وما أضعفها عند من كان للَّه عبدًا، وما أوهاها!

وإنَّ حصون الدعوة الإسلامية في الأمة، لهي أول ما يقصده الشيطان بالإغارة والحصار..!

وإن قوافل الدعاة وصفوف العاملين للإسلام، لهي أول ما يرميه إبليس بفتن التشتيت والتفتيت، وعواصف التشريد والتبديد!

وإن قطار الصحوة الإسلامية لهو أول ما يرومه اللعين بتضليل الاتجاه، وتحريف المسار..!

وإن مسلمًا ابتلي بشيء من هذا العمل

الإسلامي، لا يجعل هذه الحقيقة الكبرى نصب عينيه؛ لهو مهدد بالخسران المبين، والعياذ بالله!

أيها الشباب المكابد لحقائق القرآن!

أيها الجيل المستسقي من ربيع القرآن!

يا أبناء مدرسة القرآن الكريم!

يا حُمَّالَ كلمات اللَّه!

أيها السائرون على أثر قافلة الأنبياء! تضربون في زمن الظلام، رجاء إيصال بصيص من نور إلى المستضعفين الحائرين!

ألَا وإنها لنعمة كبرى - أيها الأحباب! - أن يكون المسلم منخرطًا في مدرسة القرآن، يتتلمذ على عين اللَّه، يتلقى رسالات القرآن، ويتزكى بكلمات اللَّه!

لكن مدرسة القرآن - أيها الأحبة! - لها شرطٌ إلهي عظيم، به تُنَاطُ كل طلبات الانتساب، ورغبات الانخراط.. وإنما اللَّه ﷻ هو وحده

الذي يقضي فيها؛ فيقبل ما يشاء ويرد ما يشاء! هو وحده رب المدرسة، وهو صاحب الأمر فيها. وإن ذلك الشرط القرآني العظيم مسطور في كتاب اللَّه، موضح ببلاغه المبين لجميع الراغبين.. ذلك هو: التحقق بمنزلة الإخلاص!

يا جيل القرآن المجيد:

لقد أتى علينا حينٌ من الدهر في خضم العمل الإسلامي، نجري ونلهث، ولكن بلا جدوى! لقد كنا نسلخ من الأعمار السنوات تلو السنوات، ثم ننظر إلى آثار السير تحت أقدامنا؛ فنجد أنفسنا ما نزال لم نبرح مواقعنا الأولى.. تلك المواقع التي انطلقنا منها قبل أن نشيب! بل لقد وجدنا الأرض تغوص تحت أقدامنا! ووجدنا حصوننا الأولى تساقط أركانها الواحد تلو الآخر.. وكانت الصدمة شديدة؛ عندما تساءلنا عن أربعين عامًا أمضتها الحركة الإسلامية في التبشير بشعاراتها؛ فوجدنا أنفسنا قد تأخرنا - بدل أن نتقدم - أربعين خريفًا

من الزمان! وأدركنا أن شيئًا ما في محرك السيارة ليس على ما يرام! والخطر الأكبر أن المحرك كان مشتغلًا يملأ الفضاء بالضجيج والعجيج! وأمعنا النظر إلى العجلات، أنها كانت فعلًا تسير، ولكن إلى وراء..! ووجدنا أنفسنا نتلقى الصفعات تلو الصفعات.. ولكننا لا ننتبه إلى رسالاتها ولا نفهم إشاراتها! والقليل منا من عاد إلى « كطالوج » العمل الإسلامي، وبوصلته الدقيقة؛ قصد المراجعة: القرآن المجيد! لقد كان الشيطان - كلما تساءلنا: أين الخلل؟ - يبادرنا بإلقاء أسباب منطقية كاذبة - ومن المنطق ما هو كاذب - تعمية عن جواب القرآن الواضح المبين!..

وكنا - مع الأسف الشديد - نصدق الشيطان! لأننا كنا ننسى ونغفل عن وجود شيء اسمه « الشيطان »! ولا نكاد نتذكر وجوده إلا عندما نقرأ بعض آيات من القرآن! وما لنا وللشيطان؟ إنه بعيدٌ عنا.. إنه هناك في أعالي البحار النائية! ونحن

هنا نشتغل في دعوة الإسلام! فلا يخطر بالبال أنه هو يدير معركة الشر من هناك، ويقود جنده في أوساطنا، بل في أعماق أنفسنا! ولقد انتصبت راية التحذير من هذا الشر الْمُبِيرِ في القرآن: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

ونسى أن قرناء السوء من شياطين الجن يعملون لحساب إبليس في كل مكان! وأنهم يلابسون الأنفس ويخالطونها، يزينون لها الشهوات والشبهات! وننسى وننسى! ولا نتذكر إلا قليلًا!.. أم أن الشيطان غير موجود؟ أم أن القرين وَهْمٌ؟ هل نحن في حاجة إذن إلى إعادة بناء أصول الإيمان في أنفسنا، وتعلم أبجديات الدين من جديد؟ كلا، كلا! نحن مسلمون مؤمنون، ولكن شدة الغفلة تكاد تخلط أحوالنا بأحوال غير المؤمنين والعياذ باللَّه! وكفى بذلك علامة كبرى على انحراف السير..!

ثم قرأت القرآن، فوجدت أن دعوة الإسلام دين! دينٌ يُعْبَدُ به اللَّه الواحد القهار، وليست شيئًا آخر! ما هي بانتماءات ولا شعارات، ولا أحزاب، ولا ألقاب! إنها دعوة للناس كل الناس، دعوة للتعرف إلى اللَّه، وإلى رعاية حقوق اللَّه قبل حقوق الإنسان! وإن الدين لا يسمى « دينًا » - على الحقيقة - إلا إذا كان عبادة للَّه رب العالمين! وإن العبادة لا تكون كذلك إلا إذا كانت خالصة للَّه! وهنا وجدت جواب القرآن: الإخلاص! وجدت جواب القرآن سيفًا صارمًا يفصل ما بين الحقيقة والتَّمثال! وأبصرت هذا الفرقان العظيم: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، وكذلك: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١]، ومثله قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]. ومثل هذا وذاك من الفرقان كثير! نعم

هكذا هو الأمر إذن: أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وما ليس بخالص فليس له! وإنما هو لمن توجه إليه به صاحبه!.. ومعنى الخالص: النظيف الصافي على أكمل ما يكون الصفاء! كاللبن الصافي إذا لم يخلطه شيء ولو نقطة! كان لبنًا خالصًا، فإن وقع فيه شيء، ولو مقدار ذرة؛ فَقَدَ معنى كونه خالصًا!

ثم راجعت ما سلخت من عمري فشعرت بمقارض الحسرة والندم تمزق كبدي! فوا أسفاه! وا أسفاه! وأبصرت أن قطار العمل الإسلامي كان يسير بنا مائلًا منذ زمان.. حتى انحرفت عجلاته أخيرًا عن سواء الطريق!.. وأبصرت أننا كنا نقدم دعوتنا وحركتنا ونضالنا، لا للَّه، ولكن لأنفسنا! لقد كنا نلبي نرجسية ذواتنا في التلميع والتسميع! وبهرتنا شهوة الميكروفون، والصور البطولية الكبيرة! ومضينا في طريقنا نستعرض عضلاتنا تحت شعار العمل الإسلامي، والمشروع الإسلامي! ودبجنا قاموسًا من المصطلحات

« النضالية » و « الحركية »، التي ضخمها الشيطان في قلوبنا، واستهوتها النفس المغرورة! وأنشأنا « علم كلام الحركي »، كلامًا نضيع به أعمارنا وأعمار الشباب!.. وبدل أن نجعل أنفسنا خادمة للدين؛ جعلنا الدين خادمًا لأنفسنا! نشاهد فيه انتصاراتنا نحن لا انتصارات الإسلام! وما أعظم الفرق بين شَفَقٍ مُشْرِقٍ وشَفَقٍ غَارِبٍ! ولكنهما يتداخلان ويختلطان على من ضلَّ عنه تحديد بوصلة الزمن! وأدركنا أننا قد ملأنا عقول أجيال من الشباب بفقاعات « الكلام »، وما أسسنا في قلوبهم ولا لبنة واحدة من حقائق القرآن! فتخرج طابور كبير من المتكلمين! وبقيت ساحة الدعوة الإسلامية خالية من العاملين!

لقد كان الصف الإسلامي - وما يزال - ينظر إلى قامته الطويلة العريضة، فيعجب بظله العالي العريض! وينسى أن اللَّه وحده هو الذي يمد الظل ويقبضه! ويستمتع المتكلم منا في الجماهير،

بحرارة التصفيق الملتهب بين يديه! وينتشي بتفوقه وبطولته! ثم ينصت جيدًا إلى أنغام المديح والشعارات، ويطرب طربًا! فتتضخم في نفسه « أناه » الشخصانية والحزبية، أو الجماعية! ثم يلتفت ليرى أثر قدمه في الساحة، وصيت جماعته الكبير، فينتشي ويتلذذ بأناه.. ألا ما أشقاه!

ويسب آخرون الظلام بقوة، ويلعنون الطاغوت والطغيان! فينصتون إلى آثار تصريحاتهم على جمهور العوام، حتى إذا سكروا من تلقي كلمات الإعجاب، ومشاعر الانبهار؛ انتفخ الشيطان في نفوسهم فانتفخت عضلاتهم! ثم خرجوا يستعرضون ذواتهم على الناس! وهذا رسول اللَّه سيد ولد آدم - عليه الصلاة والسلام - يفتح اللَّه له مكة، عاصمة الطاغوت الأكبر يومئذ، فيدخلها مطأطئ الرأس فوق ناقته، ساجد القلب؛ تواضعًا للَّه الواحد القهار! كما تذكر كتب السيرة.

قال ابن إسحاق في روايته عن عبد اللَّه

بن أبي بكر بن حزم، في فتح مكة: « وإن رسول اللَّه ﷺ ليضَعُ رأسه تواضعًا للَّه حين رأى ما أكرمه اللَّه به من الفتح، حتى إن عُثْنُونَهُ [يعنى طرف لحيته] ليكاد يمس واسطةَ الرَّحْلِ! »[١] لشدة انحنائه فوق ناقته - عليه الصلاة والسلام.

إن العمل الإسلامي الخالص لا يمجد الرموز والقيادات، التي تتحول في قلوب الأتباع إلى أوثان معنوية! وإنما يمجد اللَّهَ الواحدَ القهارَ..! وإن المؤمن ليرَى ببصيرته النافذة أن الشأن الدعوي، إنما يدبره اللَّه وحده من فوق سبع سموات، وما العاملون في صف الإسلام إلا عبيد وجنود..! فمن جَرَّدَ قَصْدَهُ للَّه تولاه اللَّه، ومن

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٥)، والسيرة النبوية لابن كثير: (٣/ ٥٥٥). لكن سند الحديث غير متصل. وفي رواية للحاكم عن أنس ﷺ قال: « دخل رسول اللَّه ﷺ مكةَ يومَ الفتحِ، وذَقْنُهُ على رَحْلِهِ متخشِّعًا! » قال الحاكم: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه ». وأخرجه البيهقي أيضًا في دلائل النبوة.

خَلَطَ رَدَّ اللَّه عليه عملَه، وفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، والعياذ باللَّه!

ويكفي المؤمنَ الكَيِّسَ الفَطِنَ - وإنما المؤمنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ - أن يقرأ حديث: « **إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى! فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ!** »[1]؛ يكفيه هذا ليمتلئ خوفًا وإشفاقًا أن تتلوث أعماله الدينية والدعوية بشيء غير قصد اللَّه!

أما حديث حساب المقاصد يوم القيامة، فله قصة أخرى، لا تكاد تطيقها النفس رَهَبًا! فعن أبي هريرة ﵁ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ! قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ**

---

(١) رواه البخاري.

قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ! ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ! وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ! ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ! وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ! ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ! »[1].

ومن ذا منا يمحص قلبه تمحيصًا على ميزان جوابه ﷺ لمن سأله: « الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ!

---

(١) رواه مسلم.

فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: « **مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ!** »(١).

ومن منا يصفي أعماله وأقواله بمصفاة رسول اللَّه ﷺ إذ قال: « **إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ!** »(٢).

ألا ما أشد استسهالنا لمثل هذه النصوص الشديدة! ألا ما أشد استهتارنا بمصيرنا الأخروي! ولقد رأيت يقينًا في كتاب اللَّه، أن الطائفة المحرومة من ولاية اللَّه وسنده العالي لا تصل أبدًا! ورأيت يقينًا أنه لا سبيل إلى التحقق بولايته تعالى إلا بالإخلاص! ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ .. ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾.

إنه لا بد قبل أي خطوة - في طريق الدين والدعوة - من تمحيص هذا المعنى العظيم في

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه النسائي، وأبو داود. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وفي صحيح الترغيب

تعب! لا بد من تحقيقٍ دقيق مع الذات، ومحاسبة للنفس صارمة! لا بد من استبطان السؤال: لماذا أفعل ما أفعل؟ ولمن؟

إن المجازفة بالهروب من تمحيص الجواب وتدقيقه، والفرار من تشريح النفس بمبضعه؛ لهو تعريض للعمر كله إلى الدمار والخسار..! ولهو مقامرة بالمصير الأخروي لصاحبه! وأي ندم ينفعه يوم القيامة إذا نُشِرَتْ الصحف، وانكشفت الحقائق على وجهها؟ أما المخلصون في دينهم ودعوتهم، فإنما هم الربانيون الفقراء إلى اللَّه، المتذللون بين يديه تعالى، الذين يتبرؤون من كل أنانية تنظيمية، ومن كل حول حزبي، ومن كل قوة طائفية، أذلة على المؤمنين كل المؤمنين! ولسان حالهم يردد في كل خطوة يخطونها: «أن لا حول ولا قوة إلا باللَّه!»..

وإنني لا أجد أَجَلَّ من وصف اللَّه تعالى لهم في كتابه الحكيم، إذ قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ

ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

إن الإخلاص هو الدين، وإن الإخلاص هو الدعوة! وما فقدَ عبدٌ الإخلاص فيهما إلا فقدَ الدين والدعوة جميعًا! إن الإخلاص - أحبتي - لا يتحقق لمؤمن إلا إذا كان عبدًا أخرويًّا! ولا يكون المؤمن الحقُّ إلا عبدًا أخرويًّا! وما أشدَّ هذا السؤال الإنكاري الرهيب الرعيب! إذ يطرق جدران القلوب بكلمات اللَّه: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨]، وينتصب البيان الرباني بقوة، يرفع راية النذارة للعالمين: ﴿ ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾. أم أن هناك عقيدة أخرى غير هذه؟ فما بالنا إذن نتردد ونتلجلج؟ ما بالنا نبحث لأهوائنا

عن مسالك غير سالكة؟ ونرضى بالسير في مَحَالِكِ الظلام! كيف؟ وهذا نور الفرقان يتدفق في الآفاق!

إن العاملين المخلصين لا يتحدثون عن أنفسهم، ولا عن أحزابهم وجماعاتهم، ولا يمجدون ألقابهم ولا أنصابهم! وإنما يتحدثون عن دين اللَّه، ويمجدون كتاب اللَّه! عابدونَ للَّه في مساجدهم، عابدون للَّه في سلوكهم، عابدون للَّه في دعوتهم، عابدون للَّه في خِطاباتهم، عابدون للَّه في وظائفهم، عابدون للَّه في معاشهم جميعًا! ما حَلُّوا بمكان إلا اتخذوه محرابًا!

إنما المخلصون هم الذين يحضرون في المغارم ويغيبون عند المغانم!.. ولا يتزاحمون - باسم العمل الإسلامي - على المكاسب والمراتب والرواتب! إنهم يعطون ولا يأخذون، وينفقون ولا يُغرَّمُونَ!.. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ

فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولقد شاهدت يقينًا أن لا طريق إلى اللَّه إلا طريق الإخلاص! وأن ليس لشهادة: « أن لا إله إلا اللَّه » - التي هي عنوان الإسلام - من معنًى غير الإخلاص! وشاهدت يقينًا أن كل ما وقع في شَرَكِ « أنا » و « نحن »؛ فَقَدَ حقيقة الإخلاص! وإنَّ طائفةً ارتفعت عنها يد اللَّه ورعايته ما كان لها أن تصل، ولا أن تفوز أبدًا! ولقد رأيت كلمات القرآن الثقيلة، ترتفع فوق قلوبنا المغرورة، منذرة بعاصفة الآخرة الكبرى! العاصفة الكاشفة الناسفة! ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

فيا قلبي العليل!.. إخلاصَك إخلاصَك! قبل فوت الأوان! إخلاصَك في كل كلمة، إخلاصَك في كل خطوة، إخلاصَك في كل حركة، إخلاصَك في كل سَكَنَةٍ، إخلاصَك في كل فكرة، إخلاصَك

في كل خَطْرَةٍ! فالإخلاص هو صمام أمانك، وهو بوصلة سيرك، وميزان عملك، وضمان وصولك! وإنك إن تَعِشْ لحظةً واحدة بغير إخلاص؛ تكن قد وضعت مصيرك على فوهة مدفع الشيطان! فالنجاءَ النجاءَ، والبدارَ البدارَ، والفرارَ والفرارَ إلى الاحتماء بحصن الإخلاص قبل فوات الأمان!

وتسألني يا صاح: كيف السبيل إلى التحقق بالإخلاص؟.. وليس لي إلَّا أن أجيبكَ بكلمتين: الإخلاص قَرَارٌ ومُكَابَدَةٌ! أو قل: عزيمةٌ ومجاهَدةٌ! وإنما هذا قَبَسٌ ساطعٌ من نور القرآن، إنه من تجليات قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فكما ترى هذه مراتب ثلاث: الإيمان، والهجرة، والجهاد. فالإيمان أساسٌ لا يصح عمل بدونه. لكن الإيمان لا يرتقي إلى مقام

الإخلاص، والولاء الكامل للَّه إلا بالهجرة! فالهجرة هي القضية! وهي التي تحتاج إلى ذلك القرار وإلى تلك العزيمة!

نعم! إن الهجرة الحسية باعتبارها ضربًا في الأرض واغترابًا، لا يمكن أن تقع إلا بعد تفكير وتقدير، وطول تدبير! وذلك معنى العزم أو القَرار. وكذلك هجرة الروح إلى منزلة الإخلاص! لا بد فيها من قرار مكين متين، تتخذه النفس في خاصة أمرها، وتوثق عليه عهدها مع اللَّه! وإلا فإن كبار القضايا لا تنال بالتمني!

حتى إذا انطلقت النفس في تصفية بواطنها، وتخليص رغائبها ومقاصدها، فَوَحَّدَتْ قِبْلَتَهَا قَصْدًا واحدًا، لا تخالطه الأغيار ولا تكدره الأكدار، فكان اللَّه - جل جلاله - وحده هو مرادها، لا ترى لها مقصودًا سواه، ولا تأذن للسانها بأي كلمة أو خطوة في الدين والدعوة، إلا إذا كانت خالصة للَّه؛ فإنها حينئذ تصبح

في حاجة شديدة إلى الجهاد..! جهاد تقاتل فيه غارات الشيطان المتغيظ من اعتصامها بإخلاصها العظيم! ولا يجد الشيطان راحته حتى يكون له من عمل ابن آم حَظٌّ ونصيب! لكن المجاهد منصور بإذن اللَّه! ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

ولا يزال عبد اللَّه المخلص في مجاهدة خواطر التحريف والتضليل في نفسه حتى يلقى اللَّه! وبذلك يتلقى المؤمن الخالص فرقان السير إلى اللَّه، في دينه ودعوته، ويُرْزَقُ بوصلة الاتجاه! ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

تلك إذن هي طريق الإخلاص، وذلك هو مسلكه الفريد. قرارٌ ومجاهدة، فاتخذ يا صاح قرارك، وجهز سلاحك، واللَّه معك!

فيا إلهي الرحيم..! هذا قلبي الضعيف بين

إصبعيك، تُقَلِّبُهُ كما أنت تشاء! ترى ظاهره وباطنه، وتعلم خافيه وجاهره، وتعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور..! فاللَّهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك! اللَّهم احفظني بكلمة الإخلاص، واعصمني بحصن الإخلاص، واهدني بنور الإخلاص! اللَّهم إني أعوذ بك من عُجْبِ نفسي وهواها، وأعوذ بك من طغيانها وطغواها، وأسألك النجاة من شرها وزيغ رؤاها! اللَّهم إني أعوذ بك أن ينبت فيها حظ لها، أو لأي أحد سواك! اللَّهم اجعل عملي خالصًا لك وحدك، لا شريك لك! لا تسميع ولا تلميع! ولا تنميق ولا تزويق! اللَّهم إنما أنا عَبْدٌ، لا حول ولا قوة لي إلا بك؛ فأكرمني بولايتك، واجعلني من أهلك وخاصتك، وأدخلني في رحمتك، مع عبادك المخلَصين!

وصل اللَّهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللَّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

الاثنين، ١٥ حزيران/ يونيو ٢٠٠٩م

أخوكم المحب: فَرِيدُ الأَنْصَارِي

* * *